وزارة الثقافة

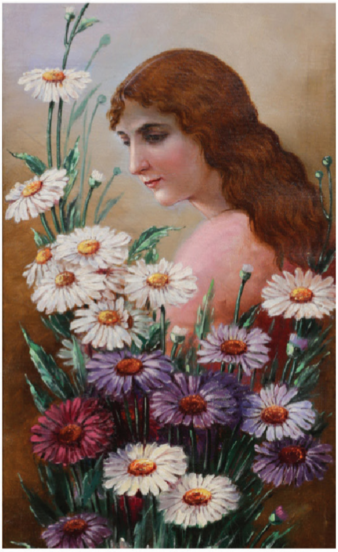

# الوميض

تأليف: هدية عبد الهادي

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

# الوَمِيض

تأليف: هديّة عبد الهادي

صدرت الطَّبعة الأولى منه عام ١٩٢٢
عن المكتبة الوطنية في حيفا

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: هدية عبد الهادي

اسم الكتاب: الوميض

الطبعة الأولى: ١٩٤٣ عن مطبعة دار الأيتام السورية في القدس

---

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

لوحة الغلاف للفنان: نقولا صايغ

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

www.moc.pna.ps

# تقديم

## سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة
وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها لطلب
العلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان
نحافظ عليه، ونريد للأجيال القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٢

# الوَمِيض

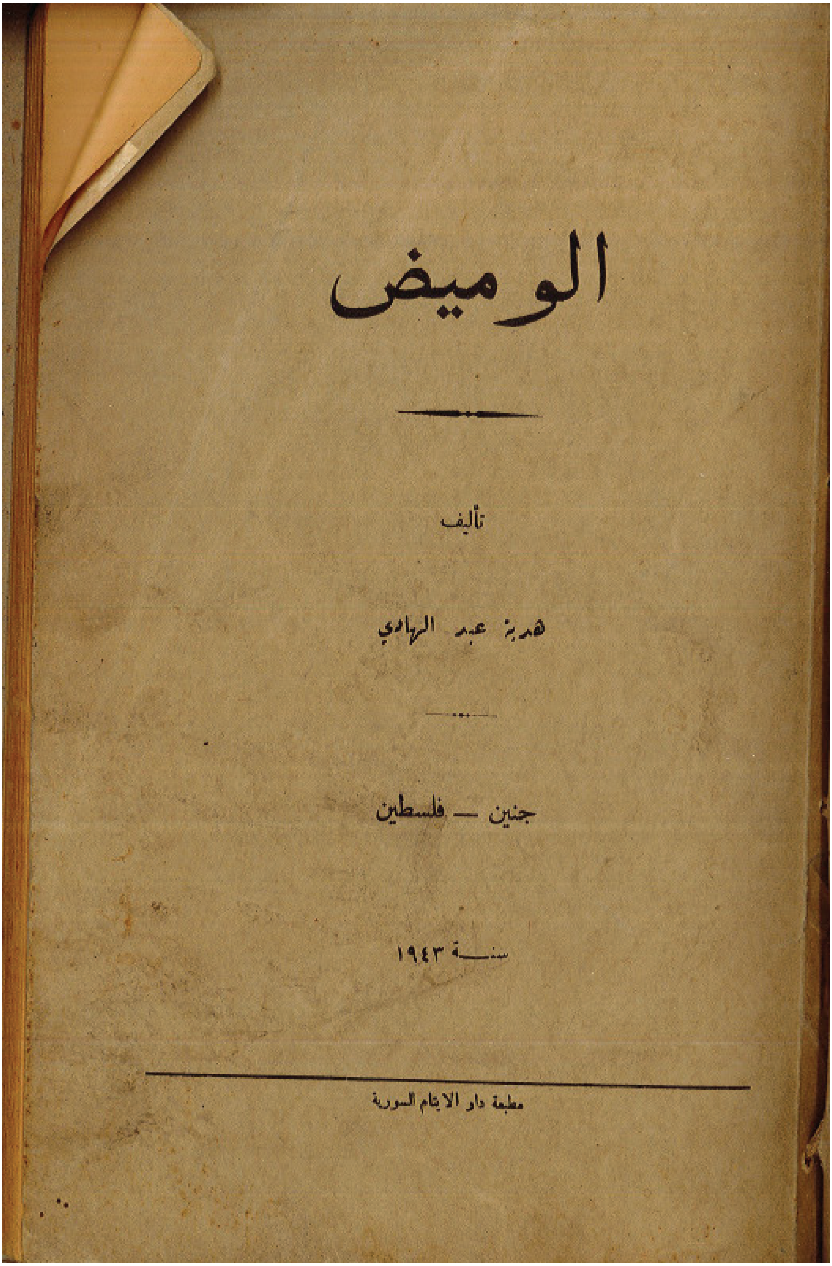

# الوميض

تأليف

هدية عبد الهادي

جنين — فلسطين

سنــــة ١٩٤٣

مطبعة دار الايتام السورية

الغلاف الأصلي للكتاب

## الإهداء

إلى الشقيقة العزيزة، التي يروقها ما أكتب، ويعجبها ما أنتج، العزيزة «عواطف» الطالبة بمدرسة الفرندز بمدينة رام الله، تلك التي طالما كنت اقرأ لها كل فكرة أدونها، بل كل فقرة يتفتق عنها خيالي، وهي مصغية مغتبطة تشاركني إحساسي وتأثراتي حتى لقد كانت بمثابة المرآة تنعكس عليها صورة نفسيتي الثائرة الحائرة ... فأرى على أساريرها كل ما أشعر به من الملح ومرارة أو هناء وحلاوة.

إلى تلك الشقيقة التي تركت في نفسي فراغا لم يشغله أحد، أقدم ما أنتجته في غيابها بمجموعة في كتابي هذا، هدية لها، مع أحر تمنياتي.

المؤلفة: هدية عبد الهادي

# المقدِّمة

شغفت بالأدب منذ نعومة أظفاري، وتعلقت به بشغف عظيم، فأكببت على الدرس والمطالعة، أشبع منها عقلي، وقلبي، ونفسي، وشعوري، حتى تصورت نفسي تضطرم بخواطر ومعان تلح علي أن أتفرغ لها، وأصغي، وأعي وأنتبه، ثم استعد لأتلقى من تلك الخواطر والمعاني، سيلا متدفقًا من العبارات والفقرات، بل على الأصح صورة واضحة لنفسي وقلبي!

ولم تهدأ هذه الثورة؛ ثورة الأدب المكبوت في نفسي، إلا بعد أن تقدمت للإذاعة في محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية، فقد أتيح لي أن أجلس إلى قلمي، أستمليه ما أريد، وأستوحيه ما أود، ثم آخذ ما أستنتجه من جهودي وأبحاثي؛ لألقي به على مسامع أهل الأرض من أقصاها إلى أدناها، ... هذه الأمنية التي عللت بها نفسي منذ أمد بعيد فقوى ذلك من عزيمتي، وفجر ينابيع أفكاري، هنالك توجهت إلى الهدف الذي حملت قلبي لأذود عنه ما استطعت! أي إلى تلك الضحية الرخيصة، التي لا تزال د مهيضة الجناح، مهضومة الحقوق إلى يومنا هذا؛ أعني المرأة، فأخذت في دراسة قضيتها من جميع نواحيها، ثم رفعت الصوت عاليا من وراء المذياع أسمع العالم كل ما وصلت إليه في شأنها، في عدة محاضرات متسلسلة، ولم أنجِّ المرأة من المسؤولية التي تترتب عليها، كما لم ألجأ إلى الأساليب التحزبية بين الجنسين؛ لأني لا أعد الرجل المسؤول الأول والأخير عن انحطاطها، بل أحملها هي نفس المسؤولية التي أحملها للرجل من هذا القبيل. ولما صممت

عـلى إخـراج هـذه المجموعـة إلى عـالم التأليـف، رأيـت أن أوجـه جهـودي إلى ناحيـة حيـة مـن نواحـي الأدب، لا تـزال مهملـة في فلسـطيننا العزيـزة أي القصـة، وهـا أنـا أقدمهـا في مجموعتـي هـذه عسـاها تلقـى قبـولا لـدى الجمهـور الكريـم.

# مركز المرأة
# في الهيئة الاجتماعيَّة

كانت الحرب الماضية ختام مرحلة من مراحل النظام الاجتماعي، وبداية مرحلة جديدة بالنسبة للمرأة وعلاقتها بالعمران.

ولعمري لست أدري لماذا سميت المرأة بالجنس الضعيف، ولا السبب الحقيقي في تسميتها به، وهو وصف لا ينطبق على الحقيقة في شيء، والتاريخ أكبر شاهد على أن المرأة كثيرًا ما حكمت وسادت واستبدت فكانت القوية وكان الرجل الضعيف، فما كانت المرأة قط جاهلة لولا تلك القيود والسلاسل التي كانت ترسف تحت عبثيهما.

لقد تعددت الآراء بشأن المرأة حيال الرجل. فذهب بعضهم إلى وجوب المساواة بين الجنسين، وقال آخر بوجوب الاحتفاظ بالسيادة للرجل في كل شأن من شؤون الحياة. ولكن ليس في هذه الآراء ما يمكن تطبيقه على الواقع، فهنالك أشياء يجب أن تكون الكلمة الأولى فيها للمرأة وهنالك أشياء يجب أن تكون فها كلمة الرجل فوق كلمة المرأة، وهنالك أشياء يجب أن تكون المرأة فيها معادلة للرجل، ففي ميادين العلم والتربية وحقوق الزوجية بوجه عام يجب أن تكون المرأة فيها معادلة للرجل، وفي مراقبة الأولاد والدفاع عن حقوق أهل البيت وتدبير شؤون المعيشة بوجه عام يجب أن تكون سلطة الرجل فوق سلطة المرأة، وفي ترقية مستوى الأولاد الأدبي وتدبير شؤون المنزل بوجه عام يجب أن تكون سلطة المرأة فوق سلطة الرجل!!

ولعل الطبيعة شاءت ألا تجعل من الرجل إنسانًا كاملًا، ولا من المرأة إنسانا كاملًا بل جعلت منهما معا ذلك الإنسان. أنقصت في الرجال

ما أكملته في المرأة، وأنقصت في المرأة ما أكملته في الرجل، وقوت في الرجل ما أضعفته في المرأة وقوت في المرأة ما أضعفته في الرجل، فهما معًا كطاقة الزهر لا تجمل إلا حيث تتعدد الألوان أو كفرقة الموسيقى يكمل العود ما نقصه الكمان ويكمل الكمان ما نقصه العود ولا تجمل الموسيقى إلا بهما معا؛ لذلك كانا الشريكين الأبديين إلى النهاية.

وكما أن للنهضة الحديثة حسناتها المشهودة فكذلك لها سيئاتها، ذلك أن تيار الفخفخة والظهور وحب التقليد جرف معظم سيدات هذا العصر كما هو الحال مع شبانه كذلك. فقد أصبحت السيدة تتكلف المبالغ الطائلة لأشيائها الكمالية ككثرة الخدم والتأنق في الملابس والمغالاة في تقليد الغير، ولو كان أغزر مادة وأوسع ثراء.

إن هذه السفاسف يا سيدتي لا تتفق وما فطرت عليه بطبيعتك من المحافظة على كيانك وجهاد في سبيل إسعاد أسرتك وتوطيد عائلتك بكل ما أوتيت من قوة وحنان.

تفاخرت سيدتان من ربات الأسر التليدة في مصر أيهما تملك مجموعة من الحلي أكبر قيمة وأدق صنعا، واحتكمتا إلى الملكة نازلي؛ ملكة مصر المعظمة، ووالدة الملك المحبوب فاروق وكان طفلا إذ ذاك فما كان من الملكة إلا أن قالت لهما: إن جواهركما وتحفكما ثمينة ولكني لا أراها ذات قيمة أبدا!!! فسألتها السيدتان قائلتين: ليس غريبا يا مولاتنا ألَّا تكون جواهرنا ذات قيمة لديك ولكنها بالنسبة لنا ثمينة وثمينة جدًّا. ألا بربك أيتها الملكة المعظمة قولي لنا عن أحسن الحلي

والجواهـر بنظـرك. فقامـت الملكـة بنفسـها وغابـت قليـلا ورجعـت ووجهها يطفـح بـشرة وقلبهـا مفعـم بسـعادة فـوق سـعادة الملـك وبيدهـا نجلهـا الفـاروق كالملاك الوديـع وقدمتـه إليهـما قائلـة: هـذا أتحـف حليـي وجواهـري، وإن أمـلي الوحيـد أن أكفـل هـذه الجوهـرة وأرعاهـا حتـى تكـون في المسـتقبل درة فـوق الـدرر والـلآل. وهكـذا كان، فنعـم الأم هـذه الملكـة المعظمـة التـي لم ينسـها عرشـها الخالـد ونعيمهـا التليـد أن تعنـى بأولادهـا وتعدهـم للمسـتقبل الحافـل وتفاخـر بهـم كأعـز مـا تفاخـر سـيدة بمـا تملـك. فـما أحـراكِ يـا سـيدتي أن تحـصري جهـودك وتجاربـك في أطفالـك فتصقـلي أخلاقهـم وترفعـي مسـتوى تربيتهـم فتخدمـي نفسـك ووطنـك وطفلـك أجـل خدمـة يذكرهـا لـك التاريـخ.

وقبـل أن أختـم حديثـي أود أن أرجـع إلى أفظـع خطـأ شـائع مسـتفحل ربمـا أدى إلى أخطـر النتائـج وأوخـم العواقـب، ألا وهـو تحديـد النسـل. يقولـون إن العـالم في أزمـة اقتصاديـة شـديدة، ولا تقـدر أربـاب الأسر عـلى إعالـة عـدد كبـير مـن الأطفـال، خصوصـا بعـد أن أصبـح عـلى الأب أن يكـون سـخيا جـدا ليعلـم أولاده ويضمـن لهـم مسـتقبلا محترمًـا، إذ مـا قيمتهـم في الحيـاة إذا كانـوا جهـلاء؟ لذلـك قـد أخـذ أولـوا الأمـر في تحديـد النسـل مراعـاة للحالـة الاقتصاديـة، ولكـن ألم يقـل اللـه تعـالى ونحـن نرزقكـم وإياهـم، صـدق اللـه العظيـم. إليـك يـا سـيدتي أوجـه حديثـي بهـذا الشـأن، أن الابـن الوحيـد لا ينتظـر لـه مسـتقبل عظيـم للأسـباب الآتيـة: (١) بصفتـه وحيـدًا يكـون عـادة مدلـلا فـلا تقـدري أن تقوّميـه فينشـأ ضعيـف الخلـق والخلـق ولا يقـدر عـلى اسـتقبال الصعوبـات في المسـتقبل.

(٢) إذا حدث وفقدت هذا الابن الوحيد تكونين قد فقدت بفقده كل شيء وأصبحت وحيدة في هذه الحياة الدنيا. (٣) يركن هذا الوحيد إلى الخمول والكسل لأنه يدرك أن ليس له شريك في أموال والديه وهناك الطامة الكبرى فينغمس في الملاهي ويجرفه تيار الكبرياء الجارف فلا تنتظري منه أن يصبح يومًا رجلا بحال من الأحوال.

إن الأبناء إذا كثروا اعتادوا الخشونة في المعيشة وقل نصيبهم من المتعة والرفاهية، فيعتادون الاعتماد على النفس ولا تفاجئهم طوارئ الزمن مهما قست، فيهاجمون الحياة ليحققوا أطماعهم وغاياتهم فيكونون أنفسهم تكوينا جبارًا!

لا يجوز لك يا سيدتي أن تناصري تحديد النسل إلا في إحدى حالتين. إما أن يكون هناك خطر أكيد على حياتك بسببهما، وإما أن تكوني أنت أو الزوج مريضين مرضًا وراثيا تخافين انتقاله إلى المولود فتجنين عليه بتوريثه أمراضكما، وفي كلتا الحالتين لك عذرك الوجيه، وإلا فيجدر بك أن تحاربي هذه الفكرة خدمة للإنسانية؛ ومحافظة على الجنس البشري من خطر الانقراض المنتظر والانحلال الخلقي والأخلاقي في النشء.

اخدمي هذه الغاية النبيلة السامية، فعليك مسؤولية عظيمة نحو نفسك وأمتك ووطنك، قومي بها خير قيام فتحافظين على مركزك المصون في الهيئة الاجتماعية، فبك تقاس حضارة الأمم من فجر التاريخ إلى يومنا هذا.

أذيعت في ١٩٤٢/٠٢/٠٦ من محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية.

# فتاةٌ فِي ضِيق

كثيرا ما نتألم ويتملكنا اليأس عندما نسمع شيئا عن مأساة أو كارثة، ولطالما أقلقْنا أفكارنا بتتبع أخبار مظلوم في الحياة. هذا شعورنا نحو ما نسمعه، فكيف إذا كانت هذه الكارثة واقعية وليست وليدة الخيال؟!

كانت سعاد فتاة في الرابعة من عمرها عندما توفيت والدتها وتركتها وحيدة، وقابلت الفتاة المصاب بابتسامة صفراء؛ لأن أباها أحضر لها الحلوى يلهيها بها عن البكاء. وكان للأم المتوفاة شقيقة مقعدة فجعها المصاب، وهدَّها الألم، ولم تجد عزاء لنفسها الحزينة إلا أن تأخذ سعاد لتعيش معها، ضنا بها من الهوان الذي ينتظر الفتاة، وخير ذكرى لشقيقتها الراحلة. فأرسلت إلى الأب تطلب الطفلة ووعدته أن تكون لها نعم الأهل، خصوصًا بعد أن أصبحت سعاد تدرك ما حولها، ولم تعد تلهيها الحلوى عن السؤال والبكاء، فشكر الأب هذه السيدة المحسنة، وأرسل لها ابنته ومعها الشيء الكثير من الهدايا والملابس وكيس نقود به ما يكفيها سنة كاملة، فانتعشت الطفلة وقرت عينا لما لاقته من عناية خالتها الحنون وهكذا دخلت المدرسة وكانت شديدة الفطنة والذكاء، ولم تعد تذكر شيئا من الماضي التعيس. وبقي الأب يزور ابنته ويغدق عليها العطاء بسخاء ثلاث سنوات أخر، وكان شديد الإعجاب بذكائها، يطربه حديثها وتسره طلباتها ويفرحه كما يؤلمه شدة شبهها بوالدتها الراحلة. وأخيرًا تزوج هذا الاب فنسي طفلته كما نسى تلك الزوجة الوفية التي قضت في ريعان الشباب.

كانت الخالة متوسطة الحال، ضئيلة المورد، ولكنها لم تُشعِر البنت مرة

واحـدة أنهـا تقـاسي ضنـكا بسـبها وأن موردهـا الضئيـل لا يكفـي نصـف نفقاتهـما، فترجـع إلى أب البنـت وتذكـر لـه الحالـة، ولكـن خـاب فالهـا عندمـا اعتـذر الأب عـن تقديـم أي مسـاعدة، فراحـت السـيدة تسـتدين وتكتـب عليهـا الحجـج أن تسـد الدائنـين عندمـا تنهـي سـعاد دراسـتها. وهكـذا اسـتطاعت سـعاد أن تـدرس سـنتين، ولكـن عندمـا اشـتدت الأزمـة الأخـيرة رفـض الدائنـون أن يقرضـوا هـذه السـيدة شـيئا مـن المـال لتتـم مشروعهـا، فكانـت صدمـة عنيفـة ظهـر أثرهـا عندمـا رجعـت سـعاد في العطلـة السـنوية ولمسـت هـذه الحقيقـة المـرة القاسـية فانقبـض صدرهـا، وأظلمـت الدنيـا في عينهـا؛ لأنهـا أدركـت أن مسـتقبلها قـد انهـدم مـن أساسـه، وأن أتعابهـا ذهبـت أدراج الريـاح، إذ كيـف لهـا أن تتـم دراسـتها وقـد بقـي لهـا عامـان طويـلان؟! وكان أبوهـا قـد تـوفي قبـل مجيئهـا بقليـل، فذهبـت سـعاد إلى المنـزل الـذي غادرتـه طفلـة وقـد فقـدت أمهـا ولم تدخلـه إلا بعـد أن فقـدت اباهـا، وبكـت مـا شـاء لهـا البـكاء. بكـت أمهـا التـي مـا كانـت لتسـعد بعدهـا، وبكـت أباهـا الـذي نسـيها ولم يذكرهـا اثنتـي عـشرة سنةً، وعـلى الأصـح، بكـت شـؤمها الـذي لازمهـا مـدى الحيـاة. وكانـت امـرأة الأب امـرأة رزينـة حكيمـة، واسـت سـعاد بـأرق العبـارات، وعرفتهـا عـلى إخوتهـا وكانـوا ثلاثـة، أكبرهـم يبلـغ العـاشرة ويدعـى عليـا، والصغـيران دون الخامسـة، ولكنهـا كانـت حزينـة أكـثر مـن الحـزن نفسـه منقبضـة فـوق الانقبـاض، ولمـا ألحـت عليهـا السـيدة أن تبـوح لهـا بمـا يكنـه فؤادهـا المكلـوم، قصـت عليهـا سـعاد كيـف أن خالتهـا لم تعـد تسـتطيع مسـاعدتها أكـثر، بعـد أن رفـض الدائنـون تسـليفها مـع أنهـا قـد اسـتدانت المبالـغ الطائلـة عـلى أمـل أن تشـتغل سـعاد يومـا فتعيدهـا إلى أصحابهـا،

فـماذا تسـتطيع أن تفعـل إذا انقطعـت عـن الدراسـة؟ وهـذه هـي الحقيقـة الواقعـة، إذ يسـتحيل عليهـا أن تواصـل دراسـتها مـع هـذه النهايـة المؤلمـة.

وكانــت امــرأة الأب رقيقــة العاطفــة فياضــة الشــعور، فأقســمت عــلى أن تبيـع حليهـا وتتـم دراسـة سـعاد، وتنقـذ الموقـف العصيـب بمسـاعدة هـذه الفتـاة البائسـة التـي لازمهـا شـؤمها حتـى النهايـة.

انتعشـت سـعاد لهـذه الأريحيـة النبيلـة وشـكرت هـذه السـيدة بـكل عبـارة واتتهـا، وكانـت جوارحهـا تنطـق بعبـارات الشـكر وآيـات الوفـاء. وقامـت سـعاد تقبـل يديهـا وتبلهـا بدمـوع الفـرح قائلـة: «جـزاك اللـه خـيرا أيتهـا السـيدة، لقـد حققـت لي آمـالا طالمـا حلمـت بهـا وتمنيتهـا، لقـد كنـتِ بمثابـة الـروح إلى مشروعـي الـذي يتوقـف عليـه مسـتقبلي في هـذه الحيـاة، شـكرا لـك يـا سـيدتي وألـف شـكر» وهكـذا اسـتطاعت سـعاد أن تتـم دراسـتها بمعونـة هـذه السـيدة المحسـنة، ونالـت الشـهادة أخـيرا وتحقـق أملهـا البعيـد. فرحـت الخالـة لنجـاح ربيبتهـا وفـرح الدائنـون لنجـاح سـعاد لأنـه كان موعـد السـداد، كـما فرحـت امـرأة أبيهـا لأنهـا اصبحـت مرتاحـة الضمـير نحـو هـذه المخلوقـة التعسـة. وأُلحِقَـت سـعاد معلمـة في إدارة المعـارف، تتقـاضى ثمـاني جنيهـات في الشـهر، ولكـن، مـا كانـت المقاديـر لتتخـلى عـن التدخـل في مصيرهـا وكأنهـا أقسـمت أن تطاردهـا مهـما كانـت الأحـوال.

كانـت سـعاد تدخـر مـن راتبهـا أربعـة جنيهـات؛ لتنفقهـا عـلى نفسـها وخالتهـا بـكل تدبـير واقتصـاد، وتدفـع الأربـع جنيهـات الأخـرى إلى الدائنـين؛

لأنه الشرط المتفق عليه منذ البداية. وكانت سعيدة راضية بهذه الحالة كما كانت خالتها مرتاحة كذلك. ولكن سرعان ما وقعت الكارثة، ذلك أن أخاها عليًّا صدمته سيارة صدمة عنيفة أفقدته الرشد، فهرعت إلى تلك السيدة امرأة أبيها تسألها وكانت فاقدة الوعي، وقد راعها تقرير الأطباء أن عليا قد أرسل إلى المستشفى في حالة سيئة، وربما شفي إذا واصلوا العناية به، وهذا يتطلب المال الكافي الذي لا تملكه تلك السيدة الوالدة، فقد أنفقت كل ما تملكه لتتم دراسة سعاد.

رجعت سعاد إلى البيت وقد طار صوابها تجاه الموقف، فهي لا تقدر أن تجد مخرجا لهذه المأساة الدامية. لقد أصبحت أفكارها مشلولة، وضميرها يرزح تحت عبء هذه الفواجع المتوالية، وهي تناشدكم أيها المستمعون الكرام أن تسرعوا لنجدتها وتمدوها بآرائكم الصائبة، عساها تستطيع أن تجد لنفسها طريقة فيها ما يريح ضميرها المعذب. نعم إنها ربيبة تلك الخالة الحنون التي عملت كل ما تستطيعه تجاهها؛ تكفلتها طفلة في الرابعة من عمرها، وأنفقت عليها كل ما تملكه، ولجأت إلى الأصدقاء والمداينين تطلب مساعدتهم حتى أثقلتها الديون، ولم تبق في يدها حيلة ولا قوة، وسعاد هي المسؤولة عن هذه الحالة، ولا يمكن أن تغض الطرف عن مساعدتها وسداد ديونها الباهظة التي تحملتها لأجلها والتي لا يرضى الدائنون أن يؤجلوها مرة أخرى. وتلك السيدة التي كانت أريحيتها بمثابة الروح من الجسد فقد أنقذت الموقف بعد أن أشرف على الانهيار والتلف!!

أيسعها أن تقف مكتوفة اليدين تجاه هذه السيدة التي لا تملك ما

يتطلبه الأطباء لعلاج ولدها الذي اصبحت حياته معلقة بيد القدر؟ وكيف يمكنها أن تفضل مساعدة إحدى السيدتين دون الأخرى؟ وأيهما أحق إذا كانت هنالك أفضلية؟ إنها تفكر في الانتحار إذا لم تجد مخرجا لمأزقها الحرج! ولكنها تنتظر ردودكم أيها المستمعون الكرام ... تنتظر أجوبتكم هنا في محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية، وستشكر على موجات الأثير كل من يساهم في إنقاذها.

أذيعت في ١٩٤٢/٠٣/٠٦.

ملاحظة: كانت معظم الرُّدود تشير على سعاد أن تساعد أخاها أوّلًا، مهما كانت نتيجة الدُّيون وخيمةً، فنتائج المرض أوخم.

# رَوعَةُ التَّضحِيَة

قبل أن أدخل معك يا سيدتي في حديثي هذا، تعالي نهنئ بعضنا بعضا على هذه الخطوة الجريئة التي خطتها المرأة الشرقية، وتالله إنها البشرى وإنه العيد هذا اليوم الذي أصبحت فيه المرأة تتمتع بجل حقوقها الطبيعية والاجتماعية، وتعالي معي نودع ذلك الأمس المظلم، ومعه تلك المهانة والمذلة التي خلعتها غير مأسوف عليها!

ولكن هنالك كلمة هائلة ستحملينها وكان الله في عونك على حملها، ألا وهي المسؤولية! إنك أنت التي طلبت الحرية، وملأتِ الدنيا بالشكوى والضجيج، ووقفت ثابتة قوية إزاء كل عقبة حتى ذللتها بمقدرتك وجهادك، وخرجت منها بأملك المنشود، ألا وهو الحرية، إذن وقد أصبحتِ حرة طليقة فقد حقت عليك المسؤولية، وكل حر مسؤول.

دعيني أسألك يا أختاه ماذا عملت إزاء هذه الأيام العصيبة؟ وماذا تنوين عمله بعد اليوم. ألا تسمعين نداء الفقير وقد ضاقت به الدنيا بما رحبت؟ وأخذ منه اليأس كل مأخذ؟ هلّا شعرتِ بأنين اليتيم وهلا رثيت لحاله وما وصل إليه؟ إنك ملاك الرحمة ومنك ينتظر هؤلاء البؤساء معونتهم. كم هو عظيم منك يا سيدتي أن تتناسي راحتك في سبيل إسعاد الغير، وأن تضحي بأوقاتك وأموالك في تخفيف شقاء الآخرين.

ها نحن على أبواب عيد من أعيادنا العظيمة، نحتفل به فرحين مغتبطين، وهذا العيد هو المولد النبوي الشريف. سنحتفل بذلك اليوم العظيم لأنه اليوم الذي ودع فيه العالم أيام البؤس والشقاء، واستقبل

ذلك اليوم الميمون يوم مولد محمد الذي خلص العالم من بؤسه وشقائه، فكيف يحق لنا إذن أن نحتفل بذلك اليوم العظيم، وعندنا الشقي البائس والفقير المعدم! ألا رحمة أيتها السيدة بقومك ووطنك، فأنت قادرة على تخفيف ويلاته وآلامه. إنها تضحية سوف لا ينساها لك المجتمع، ولك من الله خير الجزاء، وبعد هذا أتظنين يا سيدتي أن تضحية المال والراحة والوقت هو المثل الأعلى للتضحية؟ كلا والله! فهنالك أنواع من التضحية لا يسع الإنسان إلا أن يقف خاشعًا مطأطئ الرأس إعظامًا وإجلالًا، هنالك أنواع من التضحية فيها الروعة وفيها القداسة التي تحملها هذه الكلمة الرائعة، وما تضحية المال والراحة تجاه الواجب بالشيء الكثير!

تعالي معي يا سيدتي نسأل التاريخ عن التضحية وروعتها، وعن عظمتها وجلالها، إنها أجل المشاعر الإنسانية بلا منازع.

لنرجع إلى الوراء، إلى واقعة القادسية ونسألها التضحية، لقد سجلت تلك الواقعة بمداد الفخار تضحية

سيدة سيبقى لها التاريخ معظما أبد الدهر وتلك هي الخنساء.

كانت الخنساء في خيمة منفردة حمراء وقد تخدد وجهها واضمحل كيانها، ولم يبق منها إلا شبح نسيه الموت أو تناساه، تمشي بهراوتها الغليظة مشية وئيدة مستقيمة، وعليها صدار أسود ممزق الإهاب يدل على أنه علامة فاجعة قديمة العهد؛ لكنها حية كأنها بنت ساعتها، وحولها فتية أربعة، ما أنضر الشباب الذي تفيض به عيونهم،

وما أسمى العزيمة التي تتلألأ بها وجوههم. تلمست هذه العجوز هؤلاء الفتية بيدها وأكبَّت على رؤوسهم ووجوههم تشم أريجهم، وما أن انتهت من ذلك حتى بادرتهم بوصيتها الخالدة.

أي بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم أعز عليَّ من نفسي ومهجتي، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية فاصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والقيامة. أي بنيّ اطلبوا الموت توهب لكم الحياة.

كانت تسيل تلك الكلمات العاصفة من فمها دونما تلجلج ولا اضطراب. ودعها أولادها وداعَ مفارق لن يؤوب، وزحفوا على جيادهم وهي تتجه بمسامعها نحو وقع الحوافر حتى تلاشت، وعادت إلى خيمتها تتلمس الأرض بعصاها وهي لا تدري أين تريد أن تدب؟ في نفسها خواطر كثيرة منها ما يتعلق بالمعركة ونهايتها، ومنها ما يخص أبناءها ومصيرهم ... أتلقاهم كدأبها في المساء؟ أم تلقى بعضهم والآخر قد أكلته شفرات السيوف؟ خواطر كثيرة تحاول أن تطغى على طمأنينتها وأمانها. ولما دنا الأصيل علت أصوات البشرى بهزيمة العدو ونصر المسلمين، فهرعت النساء يستقبلن رجالهن، ومن مثل الخنساء تنشط إلى استقبال أولادها، وهي حانية على عصاها ترتفع الأصوات من فوقها ومن تحتها وعن يمينها وشمالها، والظافرون عائدون يحيي بعضهم بعضا، وما تحيتهم إلا مصافحة بالسيف أو السنان، ولكن ما

لأبناء الخنساء لم يطل أحد منهم على هذه العجوز المرتقبة؟ ومن ذا ينبئها بمصيرهم بعد أن أبطأوا عليها! إنها تنتظر وما أمر الانتظار! يمر بها أحد رجال القادسية ممن شهد مصرع أولاد الخنساء الأربعة. شاهدها الرجل وغلبت عليه عواطفه تجاه هذه السيدة التي نالت منها القادسية أعظم تضحية، حاول أن يخبرها أكثر من مرة، وتردد أكثر من مرة، إذ كيف يكون ناعيا لأربعة أولاد في ساعة واحدة؟ ولكن ماله يكتم عنها الخبر، وماله لا يشفق على هذه العجوز التي تنتظر! فلينبئها بمصيرهم! وليفعل بها الله بعد ذلك ما يشاء. فعاد إليها مرة ثانية وناداها قائلا: يا خالتاه، لا إخالك تألمين إذا أنبأتك أن أبناءك الأربعة يسرحون هذا المساء مع شباب الجنة!

فاه بهذه الكلمة والحزن يكاد يقطع عليه أنفاسه، وما أتمها إلا بعد أن قاسى من ألم النفس مثل ما قاساه من نصب يومه! فتقدمت إليه وكان الخبر لم يعصف بنفسها وقالت: ويحك ماذا تعني! أَقُتِلُوا جميعًا؟ فأجاب: رأيتهم الواحد يصرع بعد الآخر، يذودون عن موقفٍ تهافت العدو على أخذه تهافت الفراش على النار. فزأرت أذهبوا متاعًا رخيصًا؟ فأجاب: إنهم وحدهم كانوا جيشًا، كأن الموت مورد عزموا أن يردوه جميعا، كلما فترت عزيمة واحد منهم هتف به الآخر: «وصية العجوز يا أخاه».

وكأن هذه الكلمة أيقظت الروح التي كلمت بها أولادها فقالت: ذلك ما يبعثني على أن أقول الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وإني لأرجو الله أن يجمعني وإياهم في مستقر رحمته، ولكن أنبئني ما فعل الله

بكم؟ فقال: جئنا بالنصر معقودًا على راياتنا، فهتفت: هذه التعزية المثلى فيما تبقى من أيامي المعدودة، لقد مات أخي صخر من قبل فلم يسعني من دنياي بعده إلا هذا الصدار الأسود، وها يموت أولادي الأربعة فيعزيني عن موتهم هذا الظفر الذي أحرزتموه. والتفتت إلى ناحية بيتها والرجل يتبعها حتى توارت عنه فوالله ما سمع لها أنَّة ولا رأى لها عبرة. فذهب وهو لا يكاد يصدق بأن هذه السيدة ستصبح المثل الأعلى للأم التي تعتقد أن أولادها للوطن والواجب قبل أن يكونوا لها. وإن هذه المرأة ستصبح المثل الأعلى في نكران الذات وروعة التضحية».

أذيعت في ١٩٤٢/٠٣/٢٠ بمناسبة عيد المولد النبويّ الشَّريف

# صُـوَرٌ من صميمِ الحَياةِ
# بينَ فقيرةٍ وغَنيَّة

الفقيرة:

أهلا وسهلا ومرحبا بك أيتها السيدة. لقد سرتني جدا زيارتك.

الغنية:

وأنا مشتاقة لرؤيتك أيتها العزيزة، وأتمنى دائما أن أراكِ، كيف صحتك وأحوالك، عساك بخير؟

الفقيرة:

شكرا يا سيدتي، فكم أُسَرُّ بتنازلك لزيارتي مع هذه الفوارق بيننا، فأنت الغنية المترفة وأنا الفقيرة المتوسطة. إنني أعد زيارتك شرفا عظما.

الغنية:

لا فوارق بيننا يا أختاه. أرجو أن ترفعي هذه الكلفة من بيننا، ولنكن أختين صريحتين، فإنني أكره هذه القيود المصطنعة. حدثيني عن شؤونك فكلي آذان صاغية.

الفقيرة:

وعما عساي أحدثك؟ فليس لدي أخبار تستحق الذكر، فأنا لا أعرف شيئا من أخبار المجتمع، وكما تعلمين لا أحسن الحديث عن الصالونات، وما يتبعها من حياة اللهو والبذخ، وهذا هو حديثكن.

الغنية:

وهل تظنين السعادة في الصالونات والبذخ واللهو أيتها العزيزة؟ فكم هي مملة وثقيلة هذه الحياة! لقد سئمتها وعافتها نفسي.

الفقيرة:

الحق معك يا سيدتي فإنها حياة مملة كريهة، ولكن أتدرين ما سبب هذه الكراهية وهذا السأم؟ إنه الفراغ الذي أدى بكن لهذه الحالة، أؤكد لك أنه الفراغ! فليس لديكن من الأشغال ما يطرد عنكن السأم والضجر.

الغنية:

وما هي الأشغال التي تظنينها تطرد السأم والضجر؟ قولي بربك فإني أرى أقوالك عين الصواب.

الفقيرة:

الأشغال كثيرة يا سيدتي. وما أبدع أن تباشري بعضها بنفسك فتخلصي من الحالة التي تشكينها، وكم تكونين سعيدة هانئة عندما ترين أوقاتك ليست عطلة، وليست لديك أوقات كلها خمول وكسل حيث السأم والضجر.

الغنية:

أترينني قادرة على مباشرة الأعمال بنفسي؟ عجيب أمرك! إن الأشغال

المنزلية صعبة ولا طاقة لي بحملها. ومع هذا فإنني دائما ناقمة ساخطة على الخدم، فإنهن أيضا لا يجدنها مع أنهن أقوى مني جسمًا وأكثر مرانا.

الفقيرة:

يا لهول غلطتك ويا لفظاعتها! كيف تظنين أن الخادمة تحسن عملها وتخلص له؟ إنْ أنت لا تريدين أن تخلصي لنفسك وبيتك وعائلتك، فكيف الخدم؟ وماذا يهمها إن كنت راضية أم ناقمة؟ حتى ولو أرتك الطاعة والامتثال، أتظنينها مخلصة دائمًا؟ إن هذا من المستحيل!

الغنية: نعم إن الخدم لا يخلصون صدقتِ صدقتِ، ولكني لا أستطيع أن أستغني عنهن إنَّني بحاجة إليهن دائما، فعائلتنا كثيرة العدد، إذ إننا ثلاث أخوات مع والدينا وأخوينا، وأشغالنا كثيرة كما ترين.

الفقيرة:

ثلاث أخوات مع والديكن وأخويكن كثرة عدد؟؟ وأين هي الكثرة؟ لماذا تعجزن عن القيام بأعمالكن لو قامت كل واحدة منكن بعمل؟ وسيسرك عمل نفسك أكثر مما تسرين بعمل الخدم، ألا تسمعين، قول المثل «ما حك جلدك مثل ظفرك»

الغنية:

لله درك ما أنضج أفكارك!!! قولي لي هلا تجدين صعوبة في أعمالك الكثيرة؟ أرجوك أسمعيني شيئا عن أحوالك.

الفقيرة:

اسمعي لأخبرك: إنني أعيش مع أختي ووالدتي. تقوم أختي بتنظيف المنزل ورعاية الحديقة، وتتولى والدتي إدارة المطبخ لأنها أدرى منا بمسائل الطعام، كما أقوم أنا بخياطة ملابس الأسرة وتصليح القديم منها كلما احتجنا إليه، فترين كل واحدة منا تقوم بنصيبها دون تذمر أو ضجر.

الغنية:

هنيئا لك يا عزيزتي بهذه الحياة البسيطة السعيدة، حتى ملابسكم تقومين بتجهيزها؟ آه لو كنت أتقن فن الخياطة لأرتاح من عجرفة الخائطات. ألا تجدين صعوبة في خياطة ملابسكم؟

الفقيرة:

أبدا أبدا. إنها تسلية جميلة عدا عن أنها فن جميل، كما أنها سهلة إذا أردت أن تعرفيها، إذ يكفي أن تتعلميها ستة أشهر فتتقنيها تمامًا. إنني أعجب كثيرًا لأولئك اللواتي لا يحسنَّ هذا الفن. إنه في نظري من الضروريات المهمة.

الغنية:

أعدك أني سأجرب أن أتعلمها وأسأل الله النجاح، ولكن عندي سؤال أوجهه لك. إن حياتك هادئة جدًّا، فأنتِ بعيدة عن كل أسباب الراحة والسرور، هلا ضقت ذرعا بهذه الحياة الراكدة؟ وهلا تاقت نفسك إلى

تلـك الحيـاة الصاخبـة؟ حيـاة المجتمـع والمـرح!!!

الفقيرة:

إنـك تسـيئين فهمـي يـا عزيـزتي!!! إن كل أسـباب الراحـة والسـعادة متوفـرة لـدي. إني لم أعتـد حيـاة المجتمـع لأضيـق ذرعـا بالهـدوء، ومـع هـذا فـإني لسـت محرومـة منهـا، فكلـما وجـدت في وقتـي متسـعًا تصرفـت بـه كيـف أشـاء. ولي عـدة صديقـات أزورهـن كلـما سـنحت الفـرص، فـلا أنـا وحيـدة معتزلـة، ولا أنـا متهـورة أمـزق الوقـت كيفـما اتفـق، فأنـا وسـط بـين هـذا وذاك وخـير الأمـور الوسـط، وأؤكـد لـك يـا سـيدتي أن كـثرة الاختـلاط بالنـاس مفسـدة، فهنـاك النميمـة والحسـد والمجاملـة الكاذبـة، ألا تلاحظـين هـذا بنفسـك؟

الغنية:

صحيـح أنهـا الحقيقـة، وكل واحـدة منـا تشـعر بهـذه الظاهـرة ولكننـا لا نعـرف العـلاج لهـذه الحالـة المريـرة.

الفقيرة:

إنـه كـثرة الاجتـماع السـبب يـا عزيـزتي، ليتـكِ تأخذيـن برأيـي وتجربـين، فأنـا خبـيرة بأمـراض المجتمـع وعلاتـه. دعينـي أشرح لـك شـيئا منهـا: إنكـن تجتمعـن كل يـوم تقريبـا، فـلا تجـدن حديثًـا جديـدًا لاجتماعاتكـن الكثـيرة فتأخـذن في اسـتغابة الغـير، تلمـن هـذه وتنتقـدن تلـك وتضحكـن مـن أولئـك، وهـذا مـا يفسـد الأخـلاق ويدهـور الفضيلـة، ثـم تضطـررن أن

تمارين بعضكن في الأزياء والملابس، فلا تراعين ميزانيتكن، وهذه صدمة عنيفة للاقتصاد، وبطبيعة الحال لا يمكنكن أن تقمن بواجب البيت والأطفال فتتفكك عرى الأسرة وتضمحل اضمحلالا.

الغنية:

مالي أراك تحملين بشدة علينا؟ كأنك تحملين لنا عداء!! ترفقي بنا قليلا. أنا لا تسيئني صراحتك لأنك صديقتي منذ الصغر. وحاشاي أن أنكر حقوق الصداقة المقدسة، ولكني أراك متطرفة ضدنا نحن الغنيات، وكأن لك عندنا ثأرًا، اصغي لي لأجيبك. من جهة كثرة اجتماعاتنا فإني اعترف لك أنها مفسدة، وأنها السبب الأول في تدهور الأخلاق والفضيلة، وأنا معك في هذا، وأما من جهة الأزياء والملابس فإنه الفن الذي يتطلبها منا. والفنون جميلة يا صديقتي كما أنها أكبر شاهد على الرقي، وأما البيت والأطفال، فالخدم للبيت، والمدارس للأطفال، فلا ننقصهم شيئا من حقوقهم.

الفقيرة:

يستحيل أن أناصبك العداء أيتها الصديقة الغالية، إنها الغيرة عليكن التي دفعتني إلى تطرفي ضدكن. ألسنا أبناء وطن واحد وقومية واحدة؟ رقيكن رقيي وتقهقركن تقهقري. ألم نتعاهد على الصراحة من بداية الحديث؟ إذن دعيني أدلي برأيي ثم اختاري ما تشائين. الاجتماعات

مفيـدة ومسـلية إذا كانـت قليلـة، ولكنهـا تفقـد فائدتهـا إذا تكـررت، والفنـون جميلـة إذا كانـت لا تكلفـك فـوق طاقتـك، ولكنهـا إن زادت عـن مقدرتـك سـميت طيشًـا وجنونـا، والبيـت الـذي يـترك لرحمـة الخـدم فليـس لـه إلا الانهيـار: ومـن قـال لـك إن المدرسـة هـي كل الثقافـة للأطفـال؟ ألا تعلمـين أن البيـت هـو المدرسـة الأولى للطفـل وبطابعـه ينطبـع مـدى حياتـه؟ ألا تسـمعين قـول الشـاعر:

الأم مدرسـة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

إن ضمـيري لا يرتـاح إذا أنكرتك هذه الحقائق الدامغة.

الغنية:

ربـاه رحمتـك وغفرانـك!!! أيـن أنـا؟ ويـلي!!! كيـف غابـت عنـي هـذه الحقائـق الملموسـة؟ شـكرا لـك أيتهـا الصديقـة الغيـورة، سـوف أعمـل بنصائحـك بـكل قـوتي. وسـأجعلك قـدوتي وهدايتـي، لمـاذا لم أفطـن لآرائـك قبـل اليـوم؟ تبـا لذلـك المـاضي كيـف أضعتـه هـدرًا. لقـد كنـت في الظلمـة فأخـذت بيـدي إلى النـور، وكنـت أسـعى إلى الخـراب فأنقذتِنـي مـن الهاويـة، إن لـك عنـدي جميـلا لـن أنسـاه مـا حييـت.

الفقيرة:

أسـال الله لك المعونة والتوفيـق، كما أتمنى أن تهتدين كلكن.

الغنية:

وداعا أيتها الحكيمة العاقلة، وداعًا ولك خالص شـكري.

الفقيرة:

أسـال الله أن يحرسـك ويرعاك، وداعًا وإلى اللقاء.

# بَاحِثَةُ البَادِيَة

هـي نابغـة الأمـس القريـب وفخـر الأدب العـربي في القـرن العشريـن، أول مـن نالـت الشـهادات العاليـة، وأول مـن كتبـت، وأول مـن خطبـت، وأول مـن رفعـت لـواء الجهـاد المقـدس لحريـة المـرأة، ولـدت بالقاهـرة سـنة ١٨٨٦ وتوفيـت سـنة ١٩١٨، كانـت الباحثـة عـلى صغـر سـنها تجيـد اللغـة الفرنسـية والإنجليزيَّـة إلى جانـب علـو شـأنها بالعربيـة، فكانـت أول سـيدة توفـرت لدراسـة الأدبـين الإنجليـزي والفرنـسي مـع إلمامهـا بـكل نواحـي الادب العـربي، فشـبت أديبـة عالمـة، وأعلنـت الجهـاد المقـدس لحريـة المـرأة بـدون هـوادة أو وجـل.

كانـت باحثـة الباديـة قويـة الحجـة صريحـة العبـارة، لا تأخذهـا في الحـق لومـة لائـم. وهـي السـيدة ملـك حفنـي ناصـف الـذي شـغل الوظائـف العاليـة في وزارتي المعـارف والقضـاء، وصاحـب السـبق في العلـوم والآداب العربيـة، والعـدل العمـري المشـهور، والسـهر عـلى تربيـة النـشء الجديـد مـن متكلمـي العربيـة.

وقرينهـا العـربي الصميـم، صاحـب النخـوة والسـؤدد، ومـن الأدبـاء المطلعـين عـلى اللغـات الأجنبيـة، ومـن أحسـن الرجـال خلقـا ومحتـدا وهـو شـيخ العـرب عبـد السـتار بـك الباسـل، وجيـه قبيلـة الرمـاح بالفيـوم، وهكـذا اضطـرت السـيدة مـلاك إلى الإقامـة مـع زوجهـا في سـفح جبـال الفيـوم، واختـارت لنفسـها هـذا اللقـب العظيـم «باحثـة الباديـة».

اسـتمرت باحثـة الباديـة تكتـب وتكتـب، حتـى ألمـت بـكل انـواع النسـائيات مـن صغـيرة وكبـيرة، كـما أنهـا لم تهمـل السياسـة، بـل طالمـا قرأنـا لهـا

القصائد العامرة التي تفيض شعورًا وحماسة، ومما يذكر لها أنها خطبت في نساء الفيوم بمصر في حرب طرابلس، وجمعت منهن مئات الجنيهات، كما أنها في الحرب الكبرى حاكت بيدها مائة قميص ومائة رداء أعطتها للهلال الأحمر، وكذلك وضعت برنامجا لمشغل للفتيات الفقيرات وملجأ للنساء، وكانت تنوي أن تهب هذين المعهدين كل ما لها من ميراث، وقد عملت في بيتها شبه مدرسة لتعليم التمريض واستحضرت لذلك معلمات عارفات، وكان معها كثير من التلميذات التي كانت هي إحداهن في تعلم هذا الفن الجليل. وهكذا كان لا يهدأ لها بال من أجل رقي المرأة الشرقية على العموم والمسلمة على الخصوص؛ فلم تجد لذلك بابا إلا طرقته، ومما يذكر لها بالفخر أنها كانت في كل مشاريعها العظيمة تعطي الرئاسة لإحدى العظيمات كالسيدة هدى شعراوي أو الآنسة «مي»، حتى لا يقال إنها محبة للسيادة، وتؤثر نفسها بها، وكانت فوق هذا كريمة الخلق نبيلة النفس حتى أنها كانت تنفق إيرادها كله في الأعمال الخيرية، فكم رتبت لفقيرات معاشات شهرية!! وكم علمت فتيات على حسابها! وكم تبرعت دون ذكر اسمها في أمور خيرية لنساء وأطفال، وكم لها أياد بيضاء على النهضة الحديثة ومحاربة ظلمة الجهل بكل الطرق الممكنة، ومن يرجع إلى مؤلفاتها ومراسلاتها يرى جهادها لأجل إسعاد الأسرة بكل معانيه.

كانت باحثة البادية شديدة الاهتمام بالنهضة الأدبية، لها رسائل متبادلة مع الآنسة «مي» كلها أنين متواصل وعظات بالغة، وكذلك لها

رسائل في جريدة «الجون ترك» في إستانبول وفي جرائد ألمانية وفرنسية وإنجليزية، كما لها مكاتبات إفرنجية مع عظيمات المشتغلات بالمسائل النسائية في أوروبا.

وقد شهد بعظمتها الفرنج أنفسهم، وإنا لنقرأ لها عاطر الثناء في كتاب «شتاء امرأة في أفريقيا للكاتبة الإنجليزية «شرلوت كمرون» إحدى أعضاء الجمعية الجغرافية الملوكية، وقد وصفت فيه حياة باحثة البادية وخلقها وثقافتها وعائلتها مما يبعث إلى الفخر، وكذلك أهدتها الكاتبة الأميركية وإليزابيث كوبر كتابها «المرأة المصرية» وكانت هذه السيدة متعصبة في آرائها عن العرب ومصر، ولكنها عدلت عن كثير من آرائها عقب مباحثات باحثة البادية، وكانت الباحثة تحب الرحلات الرياضية وقد سافرت إلى آسيا الصغرى والأستانة فاستفادت وأفادت ، وكما كانت باحثة البادية كاتبة سهلة الأسلوب صريحة العبارة عالية الغاية، فقد كانت خطيبة مصقعة كذلك، ولها مواقف خطابية مشهودة، منها ذلك الخطاب الناري الذي ألقته في دار «الجريد» بمصر، و كذلك بإدارة الجامعة المصرية حيث وضعت مشروعات حية، ولكننا نأسف على أنها لم تتم ...

وكانت رحمها الله معتدلة في آرائها محافظة على قوميتها، راعت أن تكون حركتها الجديدة مؤيدة من الرجل والمرأة معا، فهي تحاذر قدر إمكانها أن تتحاشى العداء الجنسي بين الرجل والمرأة، فما كانت تستحسن أن تخلق المشاكل الجنسية في حركتها الجارفة، حتى لنجد كثيرا من الرجال الذين استطاعت أن تفهمهم المطالب النسائية المشروعة

وقد أيدوها بكل قوة وحرارة، وإنك لتجد رواجا لدعوتها ومؤيدين لمشاريعها أكثر من مؤيدي نصير المرأة الأول «قاسم أمين» وذلك أنها كانت تتكلم بفطرتها البسيطة النسائية فتنتقد وتنكت، وتتألم وتشفق، ثم تضحك وتبكي ، فتظهر نقاوة نفسها البريئة الطاهرة، وتشف عن سريرتها المعذبة المتألمة، فتظهر لنا محبوبة كالطفل، بليغة كالشاعر، خلابة كالساحر، وأما هو فرجل يمثل الرجولة بأقسى معانيها! يلجأ إلى الجرأة ويسندها بقوته وجاهه وشجاعته، ولكنه مع شدة اللهجة؛ رقيق العاطفة، فياض الشعور، يتألم لحالة المرأة وما وصلت إليه، حتى لقد قال في كتابه تحرير المرأة: «أليس من الغريب ألَّا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبدا مهما اختبرها ومهما عاشت معه؟ أليس من العار أن نتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن؟ أيليق بنا ألا نثق بهؤلاء العزيزات الطاهرات وأن نسيء الظن بهن إلى هذا الحد؟ كفاك أيُّها الرجل ظلما وأنانية»! هذا ما قاله نصير المرأة العظيم الذي جاهد طول حياته لأجل تحررها، كان يلجأ إلى هذه الألفاظ التهكمية اللاذعة ليصل بها إلى غايته ومبادئه ، بينما نرى باحثة البادية تحاول أن تفهم الرجل مطالبها وغاياتها بطريقة سامية لينة، خوفا من خلق المشاكل الجنسية التي كانت تتحاشاها بقدر الإمكان فنراها تكتب إلى الآنسة المرحومة «مي» في موقف الرجل من المرأة فتقول: «ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأنه كان ينوي ظلمنا، وإنما هو أخطأ كثيرا في حسبانه أن ما يزيد من قوتنا يضعف من قوته هو، لعله ظن أن مملكتنا واحدة ولذلك نظر إلينا نظر الدعيات الثائرات، وإنما نحن نريد له السعادة والمزيد من القوة في مملكته، ونرجو منه أن يفك

عنـا الخنـاق في مملكتنـا المسـتقلة التـي تشـد أزره ولا تفكـر في إضعافـه قـط مهـما بلغـت مـن العـزة والقـوة. إننـا نتقـدم إليـه كأننـا سـاعده الـذي يريـد أن يخدمـه ويسـاعده، لا كأننـا يـد غريبـة تريـد أن تـضر بـه، إننـا منـه وهـو منـا فليطـب نفسـا وليقـر عينـا وليعطنـا مـا نشـاء».

«وإنمـا نحـن يـا «مـي» ضايقنـاه في بعـض شـؤون مملكتـه حتـى ظـن أننـا نريـد منازعتـه فيهـا، لنـترك لـه السياسـة التـي يحبهـا، وأقـول لـك همسًـا «إننـا لا ننفـع بدونـه، ولكنـه هـو أيضـا لا ينفـع مـن غيرنـا. ليهنـأ الرجـل بمملكتـه، إننـا لا نهـز عرشـه ليتداعـى إلى السـقوط كـما يقولـون، ولكننـا نهـزه لنطلـب منـه المسـاواة» هكـذا كانـت لهجـة الباحثـة سـهلة معتدلـة نالـت تأييـد الرجـال حتـى المحافظـين منهـم، حتـى قـال فيهـا شـاعر العربيـة حافـظ إبراهيـم:

سـادت على أهل القصور وسودت أهل الوبر

ذلـك لأن لهـا كل الفضـل في تحضـير الباديـة، ومعالجـة المشـاكل العائليـة العويصـة بطريقـة دلـت عـلى سـعة اطلاعهـا وحسـن تدبيرهـا للأمـور، وكانـت رحمهـا اللـه تحفـظ مـن الشـعر آلافـا، وقـد قـرأت كثـيرًا مـن كتـب الفلسـفة والاجتـماع، وجمعـت إلى عفتهـا الشرقيـة الأفـكار الحديثـة، وحـدة العارضـة، وسـعة الجعبـة، وقـد قالـت «شرلـوت كمـرون» إنهـا لتناقشـك في فلسـفة «دارون» و»سـبنسر» بشـكل يدعـو إلى الإعجـاب، وكانـت تحـب الفنـون الجميلـة فتجمـع مـن المصـورات الأثريـة واسـطوانات الغنـاء، وآداب الإفرنـج ورواياتهـم، مـا زاد شـعورها رقـة، حتـى أنهـا كانـت قريبـة التأثـر

والبـكاء عندمـا تـرى أو تسـمع شـيئا مـن عـذاب الغـير وشـقائه، وتـذرف الدمـع سـخينا مـن ظلـم الإنسـان لأخيـه الانسـان، ولما وافتهـا المنيـة سـنة ألـف وتسـعمائة وثمانيـة عـشر عـلى إثـر مـرض عضـال طـار نعيهـا بسرعـة الـبرق فانتـشرت الكآبـة وعـم الحـزن والأسـف، فسـودت أعمـدة الصحـف حزنـا عليهـا ، وكـثرت فصـول الثنـاء عـلى فضلهـا، وقـد اشـترك في ذلـك الرجـل والمـرأة، والمحمـدي والعيسـوي، والشـاعر والناثـر، والأديـب والصحفـي، حتـى الـذي لم يكـن يعنـى بالصفحـة النسـائية، والـكل واجـم مذهـول هـول المصيبـة وعظـم المصـاب، ولم يقتـصر الأمـر عـلى فصـول الصحـف وقصائـد الشـعراء ومـراثي الأدبـاء بـل سـارع الـكل إلى تخليـد ذكـرى هـذه الفقيـدة الغاليـة التـي أسـدت للوطـن والعروبـة أجـل الخدمـات وأعظـم الفوائـد، فأقـام لهـا الرجـال حفلـة أربعـين برئاسـة معـالي وزيـر المعـارف، وكانـت جامعـة لـكل مظاهـر الجـلال، حضرهـا كل عامـل و كبـير ووجيـه، ولـو كان المؤبنـون مـن النـشء الجديـد القائـل بسـفور المـرأة لوجدنـا الأمـر طبيعيـا، ولكـن كان معظمهـم مـن المحافظـين، وقـد قـال أحدهـم هـذه الجملـة الخطـيرة: «قولـوا للنسـاء إننـا نكـرم النسـاء العالمـات كـما نكـرم أعاظـم الرجـال» وتلاهـم في ذكـرى الراحلـة العظيمـة اللجـان النسـائية في مـصر وفي كل الأقطـار العربيـة، فعقـدن الاجتماعـات العظيمـة لتعـداد مناقـب الراحلـة، والسـير عـلى خطتهـا الحكيمـة، فكانـت ذكـرى باحثـة الباديـة خالـدة مـا خلـد العلـم، عظيمـة مـا بقيـت العظمـة، عاليـة مـا عـلى الحـق.

أُذِيعت في ١٩٤٢/٠٥/٠١

# نصيرُ المرأةِ قاسم أمين

اليوم وقد أصبحت المرأة من الحريَّة قاب قوسين أو أدنى واليوم وقد وجدت المرأة من يستمع لها ويصغي لحديثها، أتقدَّم إلى العالم عامة والتَّاريخ خاصَّة بواجب الإقرار بالجميل والاعتراف بالإحسان والمنة لذلك المصلح العظيم نصير المرأة الأول «قاسم أمين».

لمّا دعا هذا العظيم في مستهلّ القرن العشرين إلى تحرير المرأة من رق الجهل ومن رقّ الحجاب، لقيت دعوته أوّل أمرها أشدّ المعارضة من معظم المقامات عارضها القصر ومليكه، وعارضها مجموع الشَّعب معارضة عنيفة كما عارضها رجال الدِّين والعلم والسياسة والكتاب، وثبت قاسم ثبات الأنبياء على دعوتهم واثقًا بعدالة هذه القضيَّة، مضحيًّا في سبيلها كلّ نبوغه وعبقريّته وجبرته، ونشر بعد عام منها كتابه الثَّاني «المرأة الجديدة» فلم تخفِّف قوّة حجته من شدَّة خصومه وإن بدأ إقدامه يكسب له أنصارًا، ومع ذلك لم تثمر دعوة اجتماعيَّة في الشرق كما أثمرت دعوة قاسم من ثمرات إيجابيَّة، وبحسبك أن تعرف أنَّه لم يكن في ذلك الوقت مدرسة واحدة للبنات، بينما نرى اليوم مئات المدارس، بل ألوفها في جميع أنحاء البلاد، وإذا حاولت إجمال شخصيَّة قاسم أمين ووضع عنوان لها، لما وجدت أفضل من سطوره الآتية: «إنَّ الارتقاء في الإنسان تابع على الخصوص لجهازه العصبيّ، فأكثر النَّاس استعدادًا للرُّقيّ هم العصبيّون، الذين تبلغ منهم الانفعالات النَّفسيَّة مبلغًا عظيمًا، وتهتزّ أعصابهم المتوتّرة بملامسة الحوادث، فيظهر أثرها فيهم بشدّة، أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتَّعون ويتألَّمون، أولئك هم السَّابقون في ميدان الحياة، تراهم في الصفّ الأوّل مخاطرين

بأنفسهم، يتنافسون فيما بينهم بمصادمة كلّ صعوبة، من بينهم تنتخب القدرة الإلهيّة خيرهم وتوحي إليه أسرارها، فيصير شاعرًا بليغًا أو نبيًّا كريمًا، أو وليًّا طاهرًا، أو فيلسوفًا حكيمًا» وإنَّنا نزيد عليها و«قاسمًا أمينًا».

تُرى من يستطيع أن يكتب كلمةً كهذه إن لم يكن قد خبر النّفوس وتغلغل في طيّات الضمائر، ونقد كلّ حرف من حروفها نقطة من أثمن دماء قلبه؟ قام هذا الملاك الرحيم الذي أرسلته العناية الحكيمة يطلب حقوق المرأة ومساواتها للرّجل في الحقوق المشروعة التي لا تنكرها عليها نواميس الأرض ولا أديان السّماء، فكانت طريقه وعرة المسالك، محفوفة بالمهالك والصُّعوبات، فانقضَّت عليه الصَّواعق من كلّ جانب، وعلت صيحات الاستنكار من أولئك المتعصبين الرجعيين، ورموا صاحب الدّعوة بكل نقيصة وشتيمة، ونسبوا إليه التطرُّف والإلحاد، ولكن هيهات للباطل أن يقف أمام الحق! وهيهات للظُّلم أن يصمد إزاء العدل! فلم يتراجع ذلك الثَّائر الثَّابت عن رسالته، وأقسم أن يبلغها بكلّ صدق وأمانة وقوَّة، فأمسك القلم وكتب إلى أولئك الذين لم يفهموه: «نحن لا نكتب في أن ننال تصفيق الجهّال عامّة النَّاس، وإنَّما نكتب لأهل العلم وعلى الخصوص النَّاشئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل، فهي بما اكتسبته من التربية العلميَّة الصحيحة يمكنها أن تحل مشاكل المرأة المكان الذي تستحقُّه من العناية والبحث».

جزاك الله خيرًا أيُّها الشّهم الغيور، جزاك الله خيرًا ولله أنت ما

أقـوى حجَّتـك ومـا أبلـغ عبارتـك! إنَّـه لم يكتـف بجهـاده الفـذّ، ونضالـه العنيـف، حتَّـى أودع قضيَّـة المـرأة أمانـة في عنـق النَّاشئة، وآمـل ألَّا تمـوت دعوتـه بموتـه، وكيـف تمـوت هـذه الدَّعـوة المتينـة؟ المرتكـزة إلى الحـق، المدعمـة بقـوَّة مـن السـماء، فـما كان لبنيـان الحـقّ والعدالـة أن ينهـار أو ينهـدم.

وكان قاسـم إذا اهتـم بموضـوع أجـرى فيـه تحقيقـا يتنـاول جميـع فروعـه العمرانيـة والوراثيـة والعائليـة، فيجاهـر بمـا يـراه حقـا وقـد لا يفهمـه الآخـرون، ولم يكـن ذلـك الجاهـل المتعجـرف الـذي رضي أن يـودع نفثـات قلمـه عـلى صفحـات تـرص في المكاتـب والمعـارض ابتغـاء الكسـب والشـهرة، ولكنـه كان حـي الضمـير رفيـع الهمـة، لم يكتـب إلا مـا أمـلاه عليـه قلبـه الحـي الرحيـم، فقـد انتـصر للمـرأة بحـراره عظيمـة، وراعـه اسـتبداد الرجـل فيهـا إلى درجـة الحرمـان والطغـي، فخـط لهـا رسـما يشرفهـا في كلمتـه الآتية: «كلـما أردت أن أتخيـل السـعادة، تمثلـت لي في صـورة امـرأة حائـزة لجمال المـرأة وعقـل الرجـل، امـرأة تجـد فيهـا لطـف الشـمائل ورقـة الـذوق، وبهـاء الفطنـة، ونفـاذ العقـل وشـمة العرفـان وحسـن التدبـير، والحـذق في العمـل مـع المحافظـة عـلى النظـام فيـه، ونظافـة الباطـن والظاهـر، وحنـو القلـب وصـدق اللسـان وطهـارة الـذوق، وعظـم الأمانـة والإخـلاص في الـولاء، إلى غـير ذلـك مـن الفضائـل المعنويـة التـي ترجـح عنـد العقـلاء عـلى جميـع المحاسـن الجسـدية».

هـذا هـو مثلـه النسـائي الأعـلى، وبهـذا المثـل القاطـن جوارحـه يسـير في سـبيل الحيـاة مراقبـا المـرأة العربيـة عامـة والمسـلمة خاصـة، والعائلـة

والمجتمع والأمة جميعا، وعزز آراءه بالبراهين الساطعة والحجج الدامغة، فكان واثقا أن المرأة يجب أن تنال قسطها من المساواة والحرية مهما كانت العقبات، فتراه يقول: «كيف يقبل العقل أن تعتبر المرأة إنسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت، ثم تعتبر أنها ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شؤون الحياة العادية؟» يا لبلاغته ويا لعظمته! إنه الرجل الأول الذي انتصر للحق وأبى إلا أن يزهق الباطل، فلم يذكر الحجاب والضغط إلا وهتف، أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصوصة الجناح، مطأطئة الرأس مغمضة العينين، وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له أمامها، والسماء فوقها والنجوم تلعب بصرها، وأرواح الكون تناجيها وتوحي إليها الآمال والرغائب في فتح كنوز أسرارها.

كم هو جاهل من لم يقدس هذا الملاك البشري! وكم هو ناكر جاحد ذلك الذي لا يعترف لقاسم بالنبوغ والعبقرية! فكان لظل المرأة في نفسه دوي مرعب كدوي أبواب السجون على مسامع من حكم عليه بالسجن المؤبد، فكان يدرس مسألة الحجاب ويقلبها من جميع الوجوه، ويحلل أسبابه ويتبصر في نتائجه، ويراجع أقوال الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة وعادات القوم، فيقرر بعد البحث والتنقيب أنه ليس إسلامي الأصل ما دام قد استعمل عند أمم سبقت الإسلام وأنه ليس واجبا على المرأة المسلمة ما دام أن ليس في الشرع الشريف نص صريح يأمر به، هو في نظره أثر من آثار الهمجية الأولى، بل هو أقصى وأفظع أنواع الاستعباد، فتراه يقول فيه: «ولو لم يكن في الحجاب من عيب إلا

أنـه منـاف للحريـة الإنسـانية وأنـه صـار بالمـرأة إلى حيـث يسـتحيل عليهـا أن تتمتـع بالحقـوق التـي خولتهـا لهـا الشريعـة الغـراء والقوانـين المشروعـة فجعلهـا في حكـم القـاصر لا تسـتطيع أن تبـاشر عمـلا مـا بنفسـها مـع أن الـشرع يعـترف لهـا في تدبـير شـؤونها المعاشـية بكفـاءة مسـاوية لكفـاءة الرجـل، وجعلهـا سـجينة مـع أن القانـون يعتـبر لهـا مـن الحريـة مـا يعتـبره للرجـل، لـو لم يكـن في الحجـاب إلا هـذا العيـب لكفـى وحـده في مقتـه وفي أن ينفـر منـه كل طبـع غـرز فيـه الميـل إلى احـترام الحقـوق والشـعور بلـذة الحريـة، ولكـن الـضرر الأعظـم للحجـاب فـوق مـا سـبق، هـو أنـه يحـول بـين المـرأة وإكـمال تربيتهـا؛ لأنَّ التربيـة الصحيحـة تكـون أفـراد أقويـاء بأنفسـهم، يعتمـدون عـلى أنفسـهم، ويسـيرون بأنفسـهم ، فمـن كملـت تربيتـه اسـتقل بنفسـه واسـتغنى عـن غـيره، ومـن نقصـت تربيتـه احتـاج إلى الغـير في كل أمـوره، فالاسـتقلال في النسـاء كالاسـتقلال في الرجـال، يرفـع النفـس عـن الدنيـا، ويبعدهـا عـن الخسـائس؛ لذلـك يجـب أن يكـون هـو الغايـة التـي نطلبهـا مـن تربيـة النسـاء، ثـم رجـع إلى قولـه تعـالى «ومـن آياتـه أن خلـق لكـم مـن أنفسـكم أزواجـا لتسـكنوا إليهـا وجعـل بينكـم مـودة ورحمـة» ورجـع قاسـم يسـائل نفسـه: «أمـن دواعـي المـودة أن يضـع الرجـل المـرأة في هـذه الوضعيـة الشـائنة؟ فيحجبهـا عـن العـالم ويحجبـه عنهـا! فيحرمهـا الحيـاة الطليقـة المباحـة، التـي لم تحـرم عـلى أحـد قبلهـا ولا بعدهـا حتـى ولا عـلى الحيـوان والجـماد؟ فـكان يريـد للمـرأة شـخصية قويـة مسـتقلة، ولا يظنهـا قـادرة عـلى القيـام بوظيفتهـا في العائلـة والأمـة إلا إذا حـازت جانبـا عظيـما مـن المعرفـة والحريـة التـي يرتفـع بهـا شـأن الإنسـان مـن منـازل الضعـة والانحطـاط، إلى مراقـي الكرامـة

والـشرف، فـإن لم تكـن الأم راقيـة بمعرفتهـا وحريتهـا، فكيـف نركـن إليهـا إنشـاء الأجيـال القادمـة وبيدهـا مصيرهـم؟ فقـال: «غـاب عنـا أن الرجـل إنمـا يكـون كـما هيأتـه والدتـه في صغـره، ويظـن الجمهـور الأعظـم مـن النـاس أن التربيـة مـن الهنـات الهينـات، ولكـن مـن يعرفهـا حـق المعرفـة يعلـم أن لا شيء مـن الشؤون الإنسـانية مهـا عظـم يحتـاج إلى علـم أوسـع ولا نظـر أدق ، ولا عنـاء أشـق مـما تحتـاج إليـه التربيـة، أمـا مـن جهـة العلـم، فلأنهـا تحتـاج إلى معرفـة جميـع العلـوم التـي توصـل إلى معرفـة قوانـين نمـو الإنسـان الجسـماني والروحـاني، وأمـا مـن جهـة المشـقة والعنـاء فـلأن تطبيـق هـذه القوانـين عـلى مـا يلائـم حـال الطفـل مـن يـوم ولادتـه إلى بلوغـه سـن الرشـد يحتـاج إلى صـبر وأنـاة ومثابـرة في العمـل ودقـة في الملاحظـة والمراقبـة ، قلـما يحتـاج إليـه عمـل آخـر، لا يؤخـذ مـن هـذا أننـي أذهـب إلى أن كل أم يجـب عليهـا أن تحيـط بتلـك العلـوم الواسـعة، ولكـن إن جميـع الامهـات يجـب عليهـن أن يعرفـن كلياتهـن، وكلـما ازداد عـلى الواحـدة منهـن بأصـول العلـوم وفروعهـا، ازدادت قـوة اسـتعدادها لتربيـة أولادهـا، وليـس تأثـير المـرأة في العائلـة قـاصرة عـلى تربيـة الاطفـال بـل المشـاهد بالعيـان أن المـرأة تؤثـر عـلى جميـع مـن يعيـش حولهـا مـن الرجـال، فكـم مـن امـرأة سـهلت عـلى زوجهـا وسـائل النجـاح في أعمالـه وأعـدت لـه أسـباب الراحـة والاطمئنـان ليتفـرغ إلى أشـغاله، وكـم مـن امـرأة طيبـت قلـب الرجـل وقـوت عزيمتـه في حالـة اليـأس والقنـوط، وكـم رجـل طلـب المعـالي والمجـد طمعـا في إرضـاء المـرأة فبلـغ الغايـة مـما طلـب، وأي مصلحـة لرجـل أعظـم مـن صـلاح رفيقتـه التـي تلازمـه الليـل والنهـار، في السـفر والإقامـة، والصحـة والمـرض، والـسراء والـضراء، صديقـة تزيـن بيتـه

وتشاركه حياته، وتملأ أوقاته وتذيب همومه، هذه هي الحياة التي تسمى بالحياة».

هكذا كان قاسم يجمع إلى سحر بيانه الأدلة الدامغة والمعرفة الواسعة، فأفهم خصومه، ودحر منتقديه، وانتصر بانتصاره الحق.

قضى قاسم أمين سنة ألف وتسعمائة وثمان، ولم يجن من ثمار دعوته إلا المعارضة والعداء، ولكنها لم تمض على وفاته القليل حتى تفتحت الأذهان لشريعة قاسم ومنهجه ونصائحه فرجعوا إلى آرائه، ومشوا على منهاجه، في ذمة التاريخ تلك الشخصية النادرة، وإلى عالم الأرواح والخلود ترسل لك المرأة عاطر الثناء.

# المرأةُ الإنجليزيَّةُ ونهضتُها

القضيــة النســائية في الــشرق لا تــزال في عهــد التطــور والــدرس، وهــذه القضيــة في مقدمــة شــؤوننا الاجتماعيــة تطــورا بمقتــضى التطــور الحديــث، فــلا عــبرة بتأرجحهــا بــين النشــاط والجمــود، عــلى أنــه مــن المســتحب عنايــة المــرأة وهــي في دور التطــور والانتقــال، مطالعــة ودراســة تاريــخ الأمــم التــي يستحســن أن تكــون قــدوة، لــكي تنهــج منهاجهــا، وتتمــشى عــلى خطاهــا.

إذن فلنرجــع إلى المــرأة الإنجليزيــة التــي كادت أن تصبــح مــع الرجــل بمرتبــة واحــدة ســواء بســواء. لا تحــاول هنــا تبيــان رواج العلــم بــين نســاء الطبقــات الإنجليزيــة، فقــد صــار ذلــك مــن البدهيــات، وحســبنا إحصــاء طالبــات الجامعــات الكــبرى لتقديــر هــذا الــرواج، فقــد دل الإحصــاء في أوائــل هــذا القــرن عــلى أن عــدد الطالبــات في بريطانيــا العظمــى في الجامعــات الكــبرى بلــغ ثمانمائــة وأحــد عــشر ألفــا وثلاثمائــة وخمــس وأربعــين طالبــة. وقــد عقــد مجلــس جامعــة أكســفورد اجتماعــا طلــب فيــه مــن البرلمــان المصادقــة عــلى منــح النســاء درجــات علميــة عاليــة وقــد أجابــه البرلمــان إلى طلبــه.

والــذي يســترعي الأنظــار في قضيــة المــرأة الإنجليزيَّــة تلــك المســاعي الشــخيصة والمشروعــات الجبــارة التــي بذلتهــا لتعلــم بنــات جنســها والأخــذ بيدهــن إلى أســمى غايــة في الحيــاة، فأنشــأن الجامعــات للطــب كأعظــم مــا تكــون جامعــات العــالم، كــما أن هنالــك عــدة جامعــات نســائية بينهــا «جرتــن» و«ســمرفيل» و«لادي مرغريــت هــل» في أكســفورد، تضاهــي جامعتــي «أكســفورد» و «كامــبردج» مــن حيــث الأنظمــة والعلــوم، فهــذه الجامعــات العمليــة الاســتقلالية عــدا عــن التعليــم المشــترك بــين الجنســين، أوجــدت في إنجلــترا نســاء غــير نســاء العــالم، لا يعالجــن أمــرا مــن أمــور الكــون إلا

وقَّينه . فإنّ شئت فقل هن خير مدبرات للبيوت ومربيات للأطفال، وإن شئت فقل هن عاملات وسياسيات ورجالات ومخترعات. فإذا ذُكِرَ التأليف والخطابة فهنالك جيش كثيف من المؤلفات الخطيبات إحداهن «سسلي هملتن» التي نالت الجائزة التي عينتها الحكومة الفرنسية في جريدتي «لافيمين» و«لافي هوروس» لأحسن قصة خيالية تكتبها سيدة إنجليزية، وإذا ذكرت الصحافة فهناك جمهور عظيم من الصحفيات قدر عدده في أوائل هذا القرن بألف ومائتين وتسع عشرة امرأة منهن مسز «بير» صاحبة جريدة «صندي تايمز» و«مسز هلدا فردركس» اللغوية المشهورة المتكلمة بجميع لغات أوروبا، ومسز «فردنك» صاحبة جريدة التمريض، ومسز «رتناشل» رئيسة تحرير اللادي وغيرهن، فإذا استثنينا الأعمال الخفيفة التي تزاولها النساء في بريطانيا كوظائف البرق والبريد والتلفون، والبيع في المخازن وخدمة المقاهي والمعامل الصناعية والتجارية، تراهن يزاحمن الرجال في معظم الأعمال الصناعية العنيفة مع ما تحتاجه من عناء لا تطيقه أجسامهن، وفي مجلة «الأنال» أن مدينة «اكزتر» أنشأت سنة ألف وتسعمائة وسبع، فوجًا نسائيًا للإطفاء، فكانت أسبق العالم باستخدام النساء لهذه المهنة القاسية، وبمقتضى الإحصاء الذي ظهر في أوائل هذا القرن، بلغ عدد الطبيبات وصاحبات الصحف والمصورات ووكيلات المحال التجارية والصيرفيات وحفارات الرموس وبائعات الأسلحة ونساء البوليس عددا كبيرا جدا، ومع هذا فقد زاد هذا العدد زيادة هائلة فيما بعد، خصوصا في أيام الحرب الماضية والحرب الحاضرة فإن معظم الأعمال الصناعية والاقتصادية أصبحت موكلة إليهن.

ولم تقنع الإنجليزية في خدمة الهيئة الاجتماعية فحسب، بل تسابقت إلى خدمة العلم والسياسة أيضا، والبلاد العربية لا تزال تلهج بذكر كل من مسز «فوربس»، التي اعتنقت الديانة الإسلامية في دمشق سنة ألف وتسعمائة وعشرين والتي اشتهرت برحلتها الجريئة في صحراء ليبيا مدة أربعة أشهر على الجمال، والآنسة «غرترود بل» التي أقامت في العراق والبصرة مدة طويلة وكانت واسعة النفوذ بسبب معلوماتها وحنكتها السياسية.

ولما عقدت نساء أمريكا مؤتمرا عاما في واشنطن ودعون إليه نساء العالم سنة ألف وثمانمائة وثمان وثمانين، كانت الإنجليزية أول سيدة لبت الدعوة وسارعت إلى حضور المؤتمر ومعاضدته كما عاضدته معظم دول العالم الأوروبي على الإطلاق. ولما عقدت هذه العصبة مؤتمرها الثاني في لندرة، بدت تباشير النجاح لذلك المشروع النسوي العظيم؛ فقد تألبت الألوف حول هذا المؤتمر ما بين مدعو ومستمع من سائر الأنحاء، وكان من جملتهن فريق من الهنديات المحجبات، وناهيك بالصينيات والمصريات، وما انفض المؤتمر إلا والطلبات الجديدة تترامى إلى العصبة من كافة أنحاء الدنيا. ووالت جمعية الأمر النسائية بعد ذلك عقد المؤتمرات وقبول الطلبات، فيقدن بعد الحرب الماضية مؤتمر جنيف، ثم مؤتمر بال في سويسرا. وآخر مؤتمرات هذه العصبة العالية مؤتمر باريس سنة ألف وتسعمائة وست وعشرين. وقد اشتركت فيه

عدا معظم دول اوروبا دولتا مصر وسوريا. وانفض ذلك المؤتمر الهائل عن هذه القرارات التي أدهشت العالم:

١- بذل المساعي في كل دولة لإنشاء جمعية رئيسية فيها تمثل سائر الجمعيات النسائية، وتؤلف من هذه الجمعيات الرئيسية عصبة يطلق عليها اسم «عصبة الأمم النسائية العامة».

٢- تحسين مصير المرأة ورفع مستواها بكل الطرق الممكنة.

٣- تعميم الحقوق السِّياسيَّة بين الجنسين على السواء.

٤- تأييد السِّلم ونزع السِّلاح.

فكانت المرأة في جميع أنحاء الدنيا وهي الأم ذات العواطف الحساسة تضطرب لهول الحروب وتنكرها في قلبها وقالبها. ولما اشتركت في الأعمال الاجتماعية مع الرجل في الجيل الأخير صارت تسعى لتعزيز السلم بوساطة جمعياتها ومجتمعاتها، ومن آثارها الشريفة في هذا السبيل إنشاء عصبة الأمم النسائية لأجل السلام و الحرية، فاجتمعت هذه العصبة أولا في لاهاي تحت اسم «جمعية تصويت النساء» وكان عددهن ألفًا ومائة وستًّا وثلاثين عضوا مثلن اثنتي عشرة مملكة، ثم والين عقد الاجتماعات الفعالة وكان شعارهن هذه الجملة الخالدة «العالم يستنجد بالمرأة وهي مولدة الحياة وبالرجل وهو مستنبت مواد تلك الحياة ليشتركا معًا على هدم صروح الظلم والخصام، وتشييد قصور العدل والسلام».

ولما كان آخر اجتماع للعصبة في واشنطن في الوقت الذي كانت فيه الحالة الدولية تنذر بالخطر ، فقد صعب عليهن دراسة حالة السم ومعالجتها، وعرفن أن لا بد من ذلك اليوم الرهيب الذي سيرزح العالم تحت عبئه وويلاته، فراعهن ما رأين، ورفعن احتجاجاتهن إلى جميع المسؤولين في العالم، وسجلن استنكارهن ونقمتهن على أولئك الذين يمكرون السلام، وآخر مساعي هذه العصبة، المظاهرة الكبرى التي قامت بها الإنجليزيات على إثر تلبد الجو السياسي بالغيوم، فإن مائة الف امرأة زحفن على لندن من جميع أنحاء بريطانيا مشيا على الاقدام، وطفن شوارعها حتى انتهى بهن المطاف إلى ساحة «هايد بارك» وهناك رفعن الصوت عاليا بتأييد السلام، وارتقت خطيباتهن المنابر يلقين من فوقها كلماتهن الرحيمة وخطبهن الرنانة، وختمن مظاهرتهن بالقرار الآتي: « نحن أعضاء ونصيرات العمل في سبيل السلام. لما كنا نعتقد أن الشرائع والقوانين يجب أن تحل محل الحروب في تسوية الخلافات الدولية، نلح على حكومة جلالة الملك بأن يوافق على تسوية الخلافات بوساطة الاتفاقات والتحكيم، وهي بسبقها سواها إلى الاشتراك في مؤتمر نزع السلاح الذي يقترح عقده في عصبة الأمم تقيم الدليل على أن بريطانيا العظمى لا تنوي الاتكال على القوة».

وأما من جهة الخدمات الجليلة والعواطف الشريفة التي قدمتها الإنجليزيَّة لأمتها في أثناء الحربين الماضية والحاضرة فأكثر من أن تحصى أو تعد، فقد جمعت قواها العامة ووحدت وجهتها نحو تنشيط القوى الوطنية لإذلال الخصم الجبار وكسر شوكته وجبروته وسار في المقدمة

نساء الأحزاب الشهيرات وقطع بعضهن البحار في سبيل الوطن، فإن مسز «بانكورست» زعيمة حزب العاملات ومؤسسته أبحرت إلى روسيا لتحرك هميم نسائها لمساعدة بلادهن، هذا عدا عن ذلك العدد العظيم من جمعيات الصليب الأحمر الذي شارك الجنود في المواقع والمعارك، وقام على تضميد جراحه والسهر على خدمته والعناية به وتخفيف آلامه، لا فرق بين غنية وفقيرة، عظيمة و حقيرة، فكان لهن أعظم الأثر في نفسية المحاربين وخدمة الوطن والواجب.

أجل، هكذا كانت الإنجليزية ذات الشعور المرهف، والتربية الصحيحة، تناشد العالم والحكومة والشعب والإنسانية أن تبتعد عن الحرب، وتضطرب لهذه الفكرة الهائلة، ولكنها بعد أن رأت بعينها ضياع الجهود التي بذلت لأجل السلام لم تتردد أن صرخت صرختها الهائلة تهيب بحكومتها أن تقف بجانب الضعيف وتأخذ على عاتقها حماية المظلوم إلى النهاية، فلهذه الاسباب وكثير غيرها أجمع العالم على أن الإنجليزية أفضل نساء الدنيا بلا منازع.

فإليكِ أيَّتها السيِّدة العربيَّة النَّبيلة أرسل ندائي حارًّا لأناشدكِ أن تضعي نصبَ عينيكِ هذه السيِّدة العظيمة، وتجعليها برنامجك في وثباتك الموفّقة، والله لكِ خير معين.

أُذيعت في ١٩٤٢/٠٦/٢٦

# العَقلُ والضَّمِير

لا عجب أن الحياة صعبة صعبة، إذ إنها صورة قلما ينجح الأفراد في حسن صقلها وتصويرها حتى تبدو زاهية لامعة الألوان، وشاء ربك أن يجعل من الإنسان طبقات، كل على حسب اجتهاده وكده، أو على حسب فطرته وسجيته، فقد قال تعالى: « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ» لذلك ترى العظيم المحترم ذا النفوذ والكلمة، كما ترى الفقير الحقير الذي لا قيمة له في هذه الحياة، ولم تكن هذه الأفضلية من سبب إلا في تفاوت العقول والميول، فكم من وضيع مجهول حباه الله قلبًا حافظًا وعقلًا راجحًا، فعظم قدره، وطار في السماكين ذكره! وكم من سليل مجد وربيب نعمة لم يمنحه ربك نعمة العقل والإدراك فغدا في الناس مهملا مجهولا! وما كان الإنسان بمتبوئ مركزه بجماله، أو بحسن منظره وهندامه، فكم فاز امرؤ رث بصائب عقله وحسن تدبيره، وكم شقي أنيق بطيشه وغروره.

ولما ولي سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة، قدم عليه وفود كل بلد يهنئونه، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز واشرأب منهم غلام للكلام، وكان رثا مزريًا، فقال عمر: يا غلام ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: «يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه، فإذا منح الله المرء لسانا لافظًا وقلبًا حافظًا، فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسن لكان هنا من هو أحق بمجلسك منك، فقال عمر: صدقت، تكلم فهذا هو السحر الحلال.

والأمر الذي لا جدال فيه، أن العقل للمرء كالوقود للنار، أو كالشمس للرياض، أو البلسم للجراح، لا هدى إلا بهديه، ولا ضياء إلا بنوره،

فاتفـق النـاس عـلى تبجيـل ذوي العقـول الجبـارة، وإجـلال ذوي الأفـكار السـليمة، وجعلـوا مكانتهـم فـوق كل مكانـة واعتبـار، إذ اعتبروهـم سـادة الـرأي وقـادة الأفـكار، وسـلموا إليهـم مهـام الحكـم وأعنـة الأمـور، والحـق أنهـم أهـل لما نالـوه، جديـرون مـا اكتسـبوه، ولكـن، لعمـري إن هنـاك أمـرًا يسـتحق العنايـة والبحـث، إذ كيـف يحـق لنـا أن نجعـل العقـل مسـؤولا مسـتقلا ولا تربطـه بالقلـب والضمـير؟ ولمـاذا نجـل ونعظـم ذوي العقـول الجبـارة، بغـض النظـر عـن الضمائـر والقلـوب؟ لـك اللـه أيهـا القلـب كيـف أبـاح النـاس هضـم حقوقـك وأفضالـك، فلعمـر الحـق مـا كان العقـل بأعـلى شـانا ولا أسـمى مكانـة مـن القلـب في هـذه الحيـاة.

ألا ليـت شـعري لمـاذا ينظـر النـاس بعـين السـخرية والاحتقـار إلى إنسـان اختـل عقلـه فجُـنَّ! ولا ينظـرون بنفـس النظـرة إلى إنسـان اختـل قلبـه فتصلـب! فواللـه إن أخطـر الإصابـات مـا أصـاب القلـب، كـما أن أنبـل العواطـف مـا كان في القلـب ومـن القلـب، ومـا خطـر ذلـك الإنسـان الـذي أصيـب في عقلـه فَجُـنَّ؟ ’ن ضرره لا يصيـب أحـدا سـواه، إذ يكفـي أن يعـزل عـن النـاس فيتقـى شره وويلاتـه، بينـما يسـتحيل علينـا تفـادي أضرار غليظـي القلـوب متصلبـي الضمائـر، وكـم مـن امـرئ سـليم العقـل غليـظ القلـب كان شرًّا ووبـالا عـلى النـاس والإنسـانية عـلى السـواء! فلـم يردعـه ضمـيره أن يبنـي مجـده عـلى حسـاب الغـير! ويشـيد سـعادته عـلى شـقاء الآخريـن! وكـم مـن ذوي العقـول الجبـارة ممـن حـصروا جهودهـم وسـخروا مواهبهـم في مشـاريع هدامـة، وخطـط جهنميـة، ولم يدخـروا جهـدا في إشـقاء البشريـة وإنعـاس الانسـانية وكأنهـم قـدوا مـن الصلـب والصخـر،

أو كأنهم من غير بني البشر! فلا تأخذهم بهم رحمة، ولا تحل بهم ندامة، وأما ذوو القلوب السليمة والضمائر الحية فتراهم أحب إلى الله والناس عندهم ينشد البائس راحته، وإليهم تعلن شكوى القلوب، والله ما أروع حديث القلب للقلب، وما أرق شكوى الضمير للضمير، هم إخوان الناس والإنسانية، بل هم رسل السلام في هذه الدنيا.

ولو لم يكن القلب أعظم شأنا وأشد خطرًا من العقل، لما وكل الله له الحياة، بل لما جعله سبحانه الحياة نفسها، فالموت المحقق إذا توقف القلب ولو إلى لحظات، والفناء الأبدي إذا أصيب القلب بعطب.

وما كان لأشد التأثرات وأبلغ الانفعالات من محل إلا في القلب، يصاب المرء بفاجعة تزلزل كيانه وتزعزع بنيانه، فيثور العقل ثورة عنيفة، ومهما بلغ من عنفها وشدتها، فسرعان ما تخبو تلك الثورة، إذ يستحيل على العقل البقاء على ثورته وتشنجه إلا إلى حين، وتتفجر العين بالدمع تذرفه حارة ولكنه أيضا إلى حين، كما تعبس أسارير الوجه وتفارقه بشاشته وابتسامته وكذلك إلى حين، ولكن! هنالك، عند ذلك النبيل الوفي، بل في ذلك القلب النابض، بعد ذلك المصاب ملجأه ومأواه، فلا تبرحه ذكراه دائما وأبدا، ولا تندمل جراحه على مدى الأيام، وهيهات لجراح القلب أن تندمل! هناك يحل أهلا ويجد سهلا، فيصعب على قوى الطبيعة أن تجد له بلسمًا شافيًا أو علاجًا ناجعًا.

يرى الناس آيات السرور ويضجون لها مهللين مكبرين، بينما يعبر ذلك البائس بآهة هي كلمة القلب! وتبسم الخلائق للفرح واللهو

وتتهلل أساريرهم بشرًا وحبورًا، بينما يكتفي ذلك البائس بزفرة حرّى، هي رسول القلب، وكما أن القلب أرحب منزل للهموم والأحزان، فهو للأفراح كذلك، فما أبهج الحياة عندما يفرح القلب! إنها عبارة عن حلم لذيذ، وأمنية ساحرة، وما أجمل فرح القلب إن كان صادقا عميقًا! إنه يحيله - أي القلب - إلى طائر صداح لا يكف عن الغناء والتغريد، وهيهات للصعوبات والعقبات أن تقوى على الوقوف في طريقه! فللقلب قوة هائلة تذلل الصعاب وتتخطى العقبات.

فما دامت هذه قوة القلب وروعتها، وتلك قوة العقل وجبروتها! والقوتان هائلتان عظيمتان! فكم هو عظيم لو اتحدتا لخير البشرية، وتعاونتا على إسعاد الإنسانية المعذبة! وجدير بأولئك الذين سارعوا لنجدة مرضى العقول، فشيدوا المستشفيات الخصوصية «المارستان» لهذا الغرض، وخصصوا أشهر الأطباء لإسعاف المصابين، أن يوجهوا جهودهم نحو غلاظ القلوب متحجري الضمائر، علهم يهتدون إلى دواء شاف أو طب مفيد، ولهم من الإنسانية جميل الشكر، ومن الله خير الجزاء.

والآن ونحن على أبواب هذا الشهر الحرام، شهر رمضان المبارك الذي خصه الله بالبر والإحسان، ألا يجدر بنا جميعا أن نكون ذوي قلوب رقيقة، وضمائر حية، فنذكر الفقير البائس، وما أكثره في هذه الأيام؛ لنمد له يد المعونة والمساعدة، ونحمل معه عبء ضنكه، ونخفف عنه وطأة عوزه، أليس الفقير أخًا لنا في اللغة والوطن والدين؟ أليس عندنا منهم عدد عظيم بحاجة إلى المعونة والمساعدة؟ بشقائهم يشقى المجموع وببؤسهم تتأخر البلاد، أوليسوا بشرًا يستحقون العطف

والرثـاء؟ ليـس مـن المنـة عليهـم أن نسـاعدهم! بـل الواجـب كل الواجـب يدعونـا إلى ذلـك، فـنرضي الخلـق لـيرضى عنـا الخالـق، قـال تعـالى « وَمَـا تُقَدِّمُـواْ لِأَنفُسِـكُم مِّـنْ خَـيْرٍ تَجِـدُوهُ عِنـدَ اللـه «، وهنيئـا لمـن عمـل خـيرا فنـال رضـا اللـه، وشـكر الإنسـانية، وجميـل الأحدوثـة، وعاطـر الثنـاء، وإنـه الفخـر كل الفخـر أن نأخـذ بيـد ضعيفنـا فـلا ندعـه ييـأس ويأخـذ منـه القنـوط، فكلنـا إخـوان في الديـن و اللغـة، وكلنـا إخـوان في الإنسـانية والروابـط، قـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: «لا يؤمـن أحدكـم حتـى يحـب لأخيـه مـا يحـب لنفسـه» وقـال أيضـا صـلى اللـه عليـه و سـلم: «والمؤمـن للمؤمـن كالبنيـان يشـد بعضـه بعضـا» فلنسـتقبل هـذا الشـهر المبـارك بقلـوب صافيـة وضمائـر نقيـة، وعقـول مدبـرة، ولتشـهد علينـا عظمتـك أيهـا الشـهر الحـرام وجلالـك! أننـا متماسـكون كالبنيـان؛ متراصـون كالعـماد، مـا يـؤلم الفـرد يـؤلم المجمـوع، كـما أن رفاهيـة الفـرد رفاهيـة المجمـوع كذلـك، فـلا يهـدأ لغنينـا بـال إلا بمسـاعدة الفقـير. ولا يقـر لقلوبنـا قـرار إلا بالأخـذ بيـد الضعيـف، وإلا! فـلا حـول ولا قـوة إلا باللـه الحـي العظيـم.

أذيعت في ١٩٤٢/١٠/٢٣

بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك

# الأزمةُ تخلقُ الفُنون

هنـاك سـؤال يجـول بخاطـري ويعصـف بأفـكاري، وأعـاني بسـببه الكثـير مـن بلبـال الفكـر وتشـويش الخيـال! ولأخفـف وطـأة هـذا العـبء، احمـل معـي هـذا السـؤال الـذي أمضنـي طويـلا، وشـغلني مـدة ليسـت وجيـزة، واحمـل معـي كذلـك مـا اسـتنتجته مـن إيحـائي وتنقيبـي، جوابـا عـلى ذلـك السـؤال لألقـي بـه إليـك أيهـا القـارئ العزيـز. وأمـا السـؤال فهـو: «هـل للازمـة دخـل في خلـق الفنـون؟» ذلـك مـا احـترت في الإجابـة عنـه ردحـا مـن الزمـن، فـما كنـت تلـك المتطـيرة المتشـائمة التـي تنظـر إلى الأمـور مـن وراء منظـار أسـود! إذ إن لي عقيـدة راسـخة أنـه ليـس هنالـك حـال لـه سـيئاته، إلا ولـه حسـناته كذلـك، فقـد قـال تعـالى في كتابـه العزيـز: «فـإنَّ مـع العـسر يـسرا إنَّ مـعَ العُـسْرِ يـسرًا» صـدق اللـه العظيـم. نعـم، الأزمـة خانقـة وآخـذة بجميـع مرافـق المعيشـة في هـذه الأيـام، وليـس هنالـك أحـد لم تؤثـر عليـه هـذه الحالـة الطارئـة، ولكـن، ألم يكـن لهـذه الأزمـة مـن أثـر حسـن عـلى الحالـة الاقتصاديـة؟ وكيـف صمـدت الطبقـة الفقـيرة لهـذه الأزمـة، ولم نسـمع بسـوء الحالـة عـلى إثرهـا؟

أمـا أثـر الأزمـة عـلى الحالـة الاقتصاديـة، فـشيء ظاهـر للعيـان، وهنـاك شـواهد كثـيرة تدلنـا عـلى ذلـك، فبعـد أن كانـت معظـم الحاجيـات التـي نتـكل علهـا تأتينـا مـن الخـارج، أصبحنـا نكتفـي بمـا هـو موجـود عندنـا، وفي هـذا تشـجيع للحركـة الاقتصاديـة، وبعـد أن كنـا ننفـق الكثـير عـلى الكماليـات التـي لا ضرورة لهـا ولا موجـب، تلاشـت تلـك الكماليـات لسـببين:

١- لعـدم وجودهـا عندنـا، مع صعوبة إحضارها من الخارج.

٢- لتأثير الغلاء وارتفاع الأسعار، جعلت الناس يعزفون عن الكماليات إلى الضروريات، فالسواد الأعظم من الناس لا تساعده حالته على اقتناء أكثر من ضرورياته.

فمن هنا كان للأزمة دخل كبير في إنعاش الفن وإدخاله بصورة واسعة إلى الأعمال الكثيرة التي راجت، بعد أن كانت مهملة، وأمَّا كيف صمدت الطبقة الفقيرة لهذه الأزمة، فهذا شاهدنا على أن للأزمة دخل في خلق الفنون! وذلك أن الفقير كان يكتفي بعمل بسيط بأجر قليل لا يزيد على نفقته اليومية، وأما اليوم وقد ارتفعت النفقات بسبب الغلاء، فقد أصبح الفقير لا يكتفي بذلك العمل البسيط، وكثيرا ما سمعنا عن فقراء وثبوا وثبات موفقة دفعتهم إليها الحاجة «فالحاجة تفتق الحيلة»، وما كانوا ببالغيها لولا هذه الأزمة، ومن ثم، فلرواج الأعمال الداخلية في البلاد أثر كبير في تخفيف البطالة بين الطبقة الفقيرة، هذا إلى جانب المساعدات العديدة التي أسدتها الحكومة إلى هذه الطبقة من الناس، والتي كان لها أجمل الأثر في تخفيف الأزمة ومقاومة ضغطها إلى حد كبير.

ومما هو جدير بالذكر أن كثيرا من العظام مدينون بعظمتهم للأزمات والشدائد، حتى لقد كانت أعظم دافع على تفجر ينابيع العظمة والعبقرية في نفوسهم، ومن رجع إلى صفحات التاريخ، وجد أن عدد الذين نبغوا في حالات الأزمات والضيق، أكثر من الذين نبغوا في حالات اليسر والرخاء. بل هنالك الكثير من الناس خلقتهم الأزمة خلقًا جديدًا، لم يكونوا ليحلموا به أنفسهم، فكانت لهم بمثابة النار

من الفضة، صهرتها لتزيل خبثها عن صافيها.

ومنهم من يتفاءل باشتداد الأزمة، ويستبشر بقرب الفرج حال اشتدادها، فقد قيل عن فيلسوف عربي إنه كان يتهلل لاشتداد الأزمة، ويهتف بمن حواليه بكلمات مأثورة: «اشتدي أزمة تنفرجي، ما اشتدت إلا وانفرجت، فدوام الحال من المحال».

ومن المسلم به أن الفرج بعد الشدة من أقوى عوامل الغبطة والهناء! له أثر السحر، وبهجة العيد، وآمال القلب، وأنشودة الفؤاد. نسألك اللهم الفرج بعد الشدة، والهناء بعد العناء.

ولو لم يكن للأزمة من حسنة إلا الضغط على الأعصاب لكفى! فبالضغط يحدث الانفجار، وفي حالات الانفجار يأتي الانسان بأعمال قد يعجز عنها في حالة الطمأنينة والرخاء، وكثير من الناس يجيدون ويبدعون في حالات الضغط والضيق! حتى أنهم لا ينتجون أعظم أعمالهم إلا في تلك الحالات، فلا جدال أن الازمة من أهم العوامل التي تشحذ القرائح، وتشد العزائم، وتعلم الإنسان الاعتماد على النفس.

ومن منا ينكر ما للأزمة من فضل في الدلالة على صدق الأصدقاء، وإخلاص الأوفياء؟ ولعمري إن هذه من أعظم ميزاتها! فبالضيق يظهر الصديق، وبالشدة يختبر الرفيق، ولله در من قال:

جزى الله الشدائد كل خير

عرفت بها عدوي من صديقي

فهناك يظهر الصديق الصدوق الذي لا يألو جهدا في مساعدتك ومد يد المعونة إليك، والأخذ بيدك ولو كلفه ذلك غاليا! بينما يتراجع ذلك الذي يتخذ من الصداقة ستارًا يخفي تحته نفسا مغرضة وقلبا ماكرًا، لا يرمي إلا إلى غاية، ولا يسعى إلا إلى هدف، فلا يلبث أن يروغ وينسحب حاملا معه شره الوبيل.

وما ينطبق على الأفراد في هذه الحالة، ينطبق على الشعب والحكومة كذلك، فكما أن الفرد عرضة للأزمة، فكذلك الشعب والحكومة عرضة لها! وكما أن الفرد يحتاج إلى صديق صدوق وقت ضنكه، فكذلك الشعب والحكومة يحتاجان إلى الصديق الصدوق الذي يقف معهما جنبا إلى جنب مهما كانت الأحوال، لافظين وراءهما ذلك الصديق المدعي يندب أغراضه التي فاتته، ولم ينل منها بغيته وغرضه.

فمن هنا كان للأزمة عدة حسنات جليلة لا تتسنى في أوقات الرفاهية، ومن هنا كان لها كل الأثر في خلق التفنن والفنون، وإدخالها في جميع مرافق الحياة، وكما أن للأزمة أثرها في الأشياء الملموسة الواضحة كالتجارة والصناعة والاختراع، إذ إن معظم الاختراعات العصرية كانت الازمة أول دافع على إبرازها إلى حيز الوجود، فكذلك لها أثرها في الأشياء المعنوية الخفية، كتفجر الخيال عن روائع الشعر والأدب، وإجاشة الخاطر بمعان قد تكون مستعصية! وأروع الشعر وأبلغ العبر ما ارتُجِلَ في ساعة حرجة!

لذلك ترانا متفائلين بالأزمة، مترقبين قرب الفرج وخير العاقبة، وعسانا نسمع عن أعمال عظيمة، وفنون أخاذة وشخصيات بارزة لامعة، كان للأزمة دخل في إظهارها، ونحمد الله على أنها لم تزعزع من كياننا، ولم تقعد بهممنا بالقدر الذي كنا نتصوره ونتحاشاه، بل كانت حسناتها تراجح سيئاتها، إن لم ترجح عنها، وصدق ربك إذ يقول: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ».

# سعادةُ الحياة

شـاءت الطبيعـة أن تجعـل مـن نفسـها سـلطانا عـلى الإنسـان، وشـاءت الأقـدار أن تجعـل مـن الإنسـان عبـدًا خاضعًـا لمـا أرادت، مـا أن ارتقـى الإنسـان واختـبر الحيـاة وعـرف نضالهـا وراحتهـا، حلوهـا ومرهـا، إلا ونصب عينـه هـذا الهـدف السـاحر «سـعادة الحيـاة» هـذه الكلمـة الخياليـة الحساسـة، بـل هـذه الأغنيـة الملائكيـة السـماوية، التـي عشـقها الـكل وسـعى في طلبهـا الـكل، ولم يظفـر بهـا إلا القليـل.

قـام العلـماء يبحثـون عـن السـعادة في بطـون الكتـب ولفائـف الأفـكار، وذهـب الأغنيـاء ينشـدونها في خزائـن الذهـب وبريـق الـلآل، ويئـس منهـا العامـة ظنـا منهـم أنهـا لا تـأتي إلا مـع الجـاه العريـض، والنفـوذ المطلـق، والصـول والطـول، ولا تعيـش إلا في القصـور الشـامخة والجنـان الوارفـة، حيـث الخـدم والحشـم، واليـسر واليسـار! ولكـن السـعادة أبـت أن تتبـع هـذا أو ذاك! تعالـت أن يسـتهويها بريـق الذهـب أو نمـق العبـارة، وعظمـت أن تـرضى بسـكنى القصـور والجنـان، وشـمخت إلى عليائهـا سـاخرة بـكل المظاهـر الخادعـة، بـل وناصبتهـا العـداء! فللـه أنـت أيتهـا السـعادة مـا أعظمـك! ولله درك مـا أعـز مطلبـك ومـا أصعـب منالـك! ألا بربـك قـولي لنـا أيـن أنـت؟ فكلنـا تـواق إليـك وكلنـا في طلبـك.

ولمـا كانـت السـعادة فـوق متنـاول اليـد، وعـرة المسـالك، محفوفـة بالصعوبـات، فقـد قـال بعضهـم إنهـا كلمـة وهميـة خياليـة، لا وجـود لهـا في هـذا العـالم، تفتـق عنهـا ذهـن الشـعراء، فأبدعـوا في وصفهـا وتنميتهـا، حتـى بـدت بشـكلها الـذي نتصـوره ونتمنـاه.

فكـما تعـرف الاطفـال مـن الأسـاطير الخرافيـة عـن الغـول، وتهلـع قلوبهـم خوفـا ورعبـا لمجـرد ذكـر اسـمه، كذلـك نعـرف عـن السـعادة، وتطـير قلوبنـا غبطـة وبـشرًا؛ بغيـة الحصـول عليهـا والتقـرب إليهـا. ولكـن الحقيقـة التـي لا جـدال فيهـا أن السـعادة سر مـن أسرار الحيـاة الحيـة، وفي متنـاول الجميـع، ولكنهـا مرهفـة شـفافة تمزقهـا الصدمـات فتتـلاشى عـلى ألا تعـود! هـي كائـن ثمـين نبيـل، ولكنهـا أثمـن مـن المـال! وهيهـات أن تكـون كنـوز الارض ثمنـا لهـا، ولكنهـا رخيصـة سـهلة إلى مـن عـرف الطريـق إليهـا. هـي سـلطان ظـالم جائـر متعجـرف متكـبر، ولكنهـا خـادم أمـين إلى مـن تفاهـم معهـا وتفاهمـت معـه! فلهـا شروط قلـما يدركهـا الجميـع.

أتـدرون سـادتي وسـيداتي مـا هـي الـشروط التـي تتطلبهـا السـعادة ولا تـرضى بهـا بديـلا؟ إنهـا تريـد إنسـانا كامـلا خلقـا وعقـلا، وحيثـما وجـد هـذا الإنسـان، فالسـعادة خادمـه الـذي لا يـكل، وصديقـه الـذي لا يخـون، ولكـن مـن هـو الإنسـان الكامـل الـذي تتطلبـه السـعادة وتسـعى إليـه؟

الإنسـان الكامـل في الرجـل هـو الـذي منحـه اللـه قلبـا طاهـرًا، وعقـلا راجحـا، فيشـق طريقـه في لجـج هـذه الحيـاة، لا يقعـد بـه فتـور أو ملـل، ولا تأخـذ منـه الصدمـات أو تفـت في عضـده الأزمـات، فيكسـب ثقـة النـاس لا عـن مجاملـة، ويكسـب النجـاح في العمـل لا عـن خـداع! ذلـك الرجـل الـذي تتطلبـه السـعادة ولا تـرضى بـه بديـلا، فتدخـل عليـه غـير مسـتأذنة. فهنيئـا لـك أيهـا الرجـل سـعادتك التـي أنـت جديـر بهـا وجديـرة بـك!

وأما المرأة الكاملة فالسعادة رهن إشارتها، وحليفة إيماءة منها! ولكن، أتدرين يا سيدتي من هي المرأة الكاملة؟

قال الأستاذ الزيات في مجلته «الرسالة» على لسان سيدة تصف حقيقة المرأة الجديرة بأن تكون سيدة كاملة:

١- قد تكون السيدة أدرى الناس بشؤون الطبخ والمطبخ وأصول المائدة، ولكنها خشنة الجانب، مبتذلة الهندام، فلا تعدو أن تكون خادمة.

٢- قد تكون السيدة أقوم على رعاية الزوج والطفل والأسرة وأضبط لحساب الدخل والخرج، وأقوم على رعاية العمال والخدم، ولكنها جاهلة بأساليب الحديث، عاجزة عن فنون المجاملة والمعاشرة، فلا تعدو أن تكون قهرمانة «مديرة بيت».

٣- قد تكون السيدة بطبيعتها ولودة، فتقضي معظم وقتها في الرضاع والفطام والتربية والتهذيب والتمريض، فتتناوبها الآلام والأسقام، فلا يبقى من قلبها مكانة للزوج، ولا من جهدها طاقة للبيت، ولا من وقتها ساعة للناس، فلا تعدو أن تكون والدة.

٤- وقد تكون السيدة أرشق منظرًا من بنات هوليوود، وأفتن جمالا من كليوباترا، وأعذب حديثا من شهرزاد، ولكنها تعيش على هامش الأسرة عيش البذخ والترف، فلا تعدو أن تكون خليلة.

٥- وقد تكون السيدة أديبة عالمة متعلمة، تلبس الجديد من الأزياء، وتناقشك الطريف من الآراء، وتجادلك بقوة حجة، وسعة معرفة، ولكنها تجهل شؤون الطبخ ولوازم البيت. فلا تغدو أن تكون أديبة.

وقد تظنون أن قصور الخاصة بيوت يسكنها أسر؟ إنما هي فنادق ينزلها أفراد! فللزوجين والأولاد غرف لا يعرفونها إلا وقت النوم، وموائد لا يرونها إلا وقت الأكل، وصالون لا يزورونه إلا يوم الاستقبال، ومرافق لا يعرفونها إلا عند الحاجة! أما القصر وما فيه ومن فيه، ففي ذمة الخدم والقهارمة! فهل ينتظر أن ينشأ في مثل هذه الجماعة المنحلة سيدة تصلح لبيت؟ أو آنسة تصلح لمستقبل؟

وإنما السيدة الكاملة بمجموعة ما تقدم من الصفات الحميدة، مجتمعة فيها، ركنها الله من روح أسراره كما ركب الإغريق «فينوس» إلهة الجمال من جملة ما تفرق من الجمال في مختلف الحسان، وهذه هي السيدة التي تنشدها السعادة وتسعى طائعة إليها.

قيل لنبيل يوناني عظيم وكان جالسا في أصحابه: صف لنا السعادة أيها النبيل العظيم. فقال: أمثلي يصف السعادة وأنا أجهل الناس بها وأبعدهم عنها! فاستغرب المسألة صديق من خاصة أصدقائه وسأله قائلا: إذا لم تكن السعادة ما أرى عندك وحواليك! فما هي السعادة يا ترى؟ فأنت سيد هذه البلاد بلا منازع، وعندك الخير والبركات، والأموال والضياع، وكل ما يصبو إليه الإنسان في هذه الحياة! فالتفت

النبيل إلى ذلك الصديق وقال: لا يغرنك ما ترى ما أمري فوحقك إنَّني والسعادة على طرفي نقيض! هلا أقمت عندي هذه الليلة وسألتني عن السعادة في الصباح! فقال الصديق: نعم يا مولاي، سأقيم عندك هذه الليلة على أن تخبرني عنها في الصباح.

ولما انفض المجلس ذهب ذلك النبيل مع صديقه إلى قصره الشامخ، بل جنته الفيحاء، والخدم حوله والحرس خلفه يقومون بخدمته ورعايته، وما أن ظهر شبح ذلك النبيل على مقربة من القصر، حتى هرع جميع من فيه يستقبلونه. وأدخلوه مع صديقه مبالغين في الحفاوة والإكرام، وكان القصر يعج بالخدم والحشم والغلمان، والكل يسعى بين يدي سيدهم ومولاهم، فلا ملل ولا فتور، وما هي إلا دقائق حتى كانت الموائد معدة، ملأى بما لذ وطاب من شهي الطعام والشراب، فأكلوا وشربوا وأخذوا في الحديث والسمر، فما كان من الصديق إلا أن التفت إلى ذلك النبيل وقال: هل لي ان أسألك يا مولاي عمن هو أسعد منك في هذه الحياة الدنيا؟ وكيف تكون السعادة بعيدة عنك؟ وأنت تنعم بهذه الحياة الملأى بالخير والمسرات، وجميع من حولك طوع أمرك! بل وجميل من في البلاد وما في البلاد رهن إشارتك! فنظر إليه النبيل بطرف حزين وقال: هلا انتظرت إلى الصباح ثم تسألني؟ فقال الصديق متعجبا! إني منتظر يا مولاي! ولما حان وقت النوم دخل ذلك النبيل ومعه صديقه إلى غرفة فاخرة الرياش، فاخرة الأثاث، وقام بنفسه يقفل الأبواب والنوافذ كما أقفل أبواب القصر ومداخله،

وما رقدا في الفراش قليلا إلا وهب ذلك النبيل مذهولا مرعوبا يصرخ بأعلى صوته على الحرس والخدم! فقام الصديق إليه يهدئه، وحضر الحرس والخدم على ندائه، وأضيئت الأنوار في القصر كله، وقام النبيل بنفسه ومعه ثلة من الحرس يتفقدون القصر والأحياء المجاورة! ومعهم القناديل والأنوار. فصاح به صديقه! ولم هذه الضجة أيها النبيل؟ فإني لا أرى موجبًا للأمر! فقال النبيل: إني سمعت همسًا خلف النافذة، ولا بد أن هناك أناسا يحاولون اغتيالي! فأكد له صديقه أنه واهم في ظنه، وأنه نائم معه ولكنه لم يسمع شيئا، وأخذوه إلى فراشه بعد أن طمأنوه وهدأوا من ثائرته، ولكنه لم يلبث أن هب من نومه مرة ثانية، يصيح ويستنجد ويصرخ كالمجنون، والكل قد تألب حوله يواسونه ويطمئنونه، ولكنه أغمي عليه هذه المرة! ولم يستفق إلا بعد جهد الأطباء والحاضرين، ذلك أنه سمع شيئا يقفز من أعلى القصر إلى الفناء، ولم يكن ذلك الشيء سوى قط رآه الحرس عندما نزلوا لإعادة التفتيش! وما أن رجع ذلك النبيل إلى نفسه وردت إليه روحه، حتى قام إليه صديقه قائلا: حقيقة يا سيدي إنك والسعادة على طرفي نقيض! وأقسم لك، أنك لو عرضت عليَّ نعيمك وأموالك، وخدمك وحرسك، وجاهك ونفوذك، على أن اعطيك بها حياتي البسيطة الهادئة لما أقبلت ولا رضيت، فوالله لقد عرفت أن السعادة أحلى وأغلى من كل شي. فصاح النبيل بصوت تكاد تخنقه العبرات قائلا: رباه ما أشقاني بمالي وجاهي ليتني أجد من يبادلني بهما معا، على

أن يعطيني راحة واطمئنانا لشكرته، ألا باالله بلغ أيها الصديق كل من سألك عن السعادة قائلًا: السَّعادة سرّ من عند الله يؤتيه من يشاء. السَّعادة كنز ثمين وأثمن من الجاه والمال، وعلى الأصحّ، السَّعادة والمادَّة خصمان قلَّما يلتقيان.

أُذيعَت في ١٩٤٢/٠٨/٢١

# خواطرُ تلهمُها الهجرة

لا يذكر ذاكر ذكرى الهجرة النبوية الشريفة، ولا تمر تلك الذكرى العزيزة التالية على بال، إلا وذكر القرآن، والإسلام ومحمد، وهي ذكريات حافلة بالأحداث، ملأى بالانقلابات، ولعمر الحق إنها تعتبر مبدأ انتقال عالمي لم يسبق له مثيل، وذلك أن الانتقال الذي أحدثه الإسلام في شبه جزيرة العرب لم يقتصر عليها! ولكنه تناول العالم كله إما مباشرة وإما بوساطة، فكان أثره أبعد أثر سجله تاريخ العلم الاجتماعي للإنسانية منذ نشأتها حتى اليوم.

انتقال في معنى الدين، انتقال في إدراك حقيقة العبادة، انتقال في تعيين هدف الاجتماع، انتقال في اعتبار مكانة العلم والعقل. انتقال في تقرير الحقوق الإنسانية والطبيعية، انتقال في تحديد معنى المساواة والعدل، انتقالات هائلة في كل ضرب من ضروب الشؤون الإنسانية، فأثرت في مجموع البشرية تأثيرًا ليس له نظير! فكان من نتائجها تطورات بعيدة المدى في كل المجالات العالمية، وما الفضل في كل هذا وذاك، إلا للقرآن والإسلام ومحمد.

كان الناس قبل القرآن والإسلام ومحمد يعتبرون الدين ذلا واستكانة، فلما جاء الإسلام صاح الناس: أن ارفعوا رؤوسكم إنما التقوى في الصدور وعلو الهمة من الإيمان، ولا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، وكانوا يظنون العبادة سخرة، فقال لهم الإسلام: إنما هي صلة بين الخالق والمخلوق، فيجب أن تكون سهلة غير مرهقة، فقم ونم، وصم وافطر فإن لنفسك عليك حقا، وإن المرء ليعتبر عابدا لله في كل فاصلة تصدر منه، حتى في الكلمة التي تخرج من فمه،

وكانت الجماعات لا تفكر في المقاصد الاجتماعية، فلما جاء الإسلام قال لهم: إنما الاجتماع للتعاون على وسائل البقاء، ولا تكون مباركة إلا إذا كانت متراصة مترادفة فقد قال تعالى: «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» وكانوا لا يقيمون للعلم وزنا حتى قال لهم الإسلام: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» و: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» وكانوا يعدون العقل عدوا للدين إلى أن قال الإسلام: والدين أساسه العقل، ولا دين لمن لا عقل الله، وكان الناس في ظلمات من الجهل، بل في غياهب الظلم والجور، إلى أن جاء الإسلام فأخذ بيدهم من الظلمة إلى النور، ومن الشقاء إلى الرخاء، فطوبى للإسلام والقرآن ومحمد، وأنعم بالإسلام دينا، وبالقرآن دليلا وبمحمد نبيا! فكان دين عظيم، وكنا نحن المسلمين! وهل على الأرض أعظم من المسلمين؟ اسألوا عنا كل قطر في الأرض، فعندها خبر بطولتنا وتضحيتنا، ومفاخرنا وأمجادنا، وعلومنا وفنوننا نحن المسلمين. هل روى رياض المجد إلا دماؤنا؟ وهل زانت جنات البطولة إلا بأجساد شهدائنا؟ وهل عرفت الدنيا أنبل منا أو أكرم، أو أرأف أو أرحم، أو أجل أو أعظم أو أرقى أو أعلم؟ كيف لا! ولنا في كل أرض شهيد قضى في سبيل الإسلام والسلام والإيمان والأمان وتحت كل سماء رفرف لنا علم، وامتد لنا حكم، فكان الحكم المسعد العادل، وكان العلم الظافر الغالب، من يعد معاركنا الظافرة التي خضناها، ومن يحصي مآثرنا في العمل والفن، ومن يستقري نابغينا وأبطالنا إلا الذي يعد نجوم السماء فاكتبوا في بطون الكتب ألف كتاب! وعلى صفحات التاريخ ضعفها! وألفوا الأسفار في سيرة الرسول والمسلمين،

ثـم تبقـى السـيرة ويبقـى التاريـخ كالأرض العـذراء أو كالمنجـم البكـر! هـل تحققـت المثـل البشريـة العليـا إلا فينـا؟ وهـل عـرف الكـون متمـمًا بشريـا خـير مـن مجتمعنـا؟ قوامـه الصـدق والإخـلاص والإيثـار، إن بـين واقـع الحيـاة وأحـلام الفلاسـفة وآمـال المصلحـين حربـا أزليـة باقيـة مـا اتفقـت إلا في صـدر الاسـلام، يـوم كان الواحـد منـا يحـب لأخيـه مـا يحـب لنفسـه، ويؤثـره عليهـا ولـو كان بـه خصاصـة، فـكان هـو أهـم، تبعـا لمـا جـاء بـه القـرآن. لقـد كنـا خلاصـة البـشر وصفـوة الإنسـانية، وكنـا خـير أمـة أخرجـت للنـاس، قوتنـا بإيماننـا وعزنـا بديننـا وثقتنـا بربنـا وقانوننـا قرآننـا وإمامنـا نبينـا، وضعيفنـا المحـق قـوي فينـا، وقوينـا عـون لضعيفنـا ، وكلنـا إخـوان في اللـه وكلنـا سـواء في الديـن! وكـم نزلـت بنـا مصائـب وكـم حلـت بنـا أرزاء! فهـل بـادت روح البطولـة مـن بـين جوانحنـا؟ كلا واللـه! فلسـنا المسـلمين إذا لم نكـن أعـز بنفوسـنا مـن أهـل الأرض جميعـا.

ولعـل أكـبر أيـام الإسـلام بـل أيـام الإنسـانية جميعهـا بعـد يـوم الرسـالة هـو يـوم الهجـرة، فـما أحرانـا أن نطأطـئ الـرأس إعظامـا وإجـلالا لهـذه الذكـرى الغاليـة، وأن نرفـع الصـوت عاليًـا، بـل نرسـله حنينـا مفعـما إلى مشـارق الأرض ومغاربهـا، أقصاهـا وأدناهـا، فنذكـر الهجـرة وأصحابهـا ونذكـر البطولـة والجهـاد الخالديـن مـا خلـدت ذكـرى الهجـرة، بـل نرجـع بالذكـرى إلى الإسـلام والقـرآن ومحمـد، وإن كانـت الهجـرة بـدء عهـد جديـد في تاريـخ النبـي والديـن ولكنهـا لـن تمحـو مـن النفـس مـرارات محمضـة كابدهـا الرسـول وأصحابـه وتذوقـوا حنظلهـا أول دعوتهـم للإسـلام! قـام النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم يدعـو النـاس بالحكمـة والموعظـة، ويتلـو عليهـم آيـات

الله وقرآنه، فلا يجد منهم إلا الهزء والسخرية، بل كانوا لا يتورعون في إنزال الأذى به وبأصحابه القلائل الذين آثروا الاسلام على الشرك، ولم يكن في يد المسلمين في بادئ الأمر حول ولا قوة، وكان الأرقم بن أبي الأرقم أحد اصحاب النبي الذين اتبعوا دينه ورسالته، بل لقد كان سابع من أسلم مع الرسول وهم كل عدته وذخيرته في ذلك الوقت.

كان الأرقم رجلا مجهول الاسم مغمور الذكر، يعيش من نتاج ناقته من اللبن، و محصول أرضه من الشعير، لا يعرفه إلا نفر قليل من أصحابه ولا يدري بوجوده إلا أنفار معدودون، ولما رأى عدوان المشركين على المسلمين وإمعانهم في أذيتهم، داخل قلبه هم كبير وعزم على تخفيف آلامهم وشقائهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ووطن النفس على تضحية روحه وأهله وما يملك في سبيل هذه الدعوة التي تغلغلت في كل جارحة من جوارحه، وراح يستعرض في مخيلته ما يمكن عمله إلى أن فاجأته فكرة صائبة ارتاحت لها نفسه وبردت جوارحه وأسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: إن في بيتي متسعًا لك ولأصحابك يا رسول الله، وإننا ضعاف لا قبل لنا بعداء المشركين، أفلا تأوي إلى داري لنجمع شتات أمرنا ونغيب عن أعين أعدائنا، وننتظر الفرج من الله! فأكبر فيه الرسول الرحيم هذه العاطفة، وأذن له بإيواء المسلمين، وراح المشركون يفتشون على المسلمين في الساحات والأسواق، وفي ظل الحرم وفي دور مكة ولكنهم لم يجدوا لهم أثرا، كأن الأرض قد هيأت لهم من جوفها مخبأ. أجل لقد اختفى المسلمون في تلك الدار النائية القائمة على جبل الصفا، دار الأرقم المؤمن، جمعهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم، يخفف عنهم ويقوي من عزائمهم وقد تألبوا حوله في صمت وخشوع يستمعون إلى آيات القرآن الكريم التي يوحي بها الله إلى رسوله، فتمتلئ أفئدتهم إيمانا ويقينا، ونفوسهم شجاعة وعزما، فكانوا يتحدثون تارة ويتعبدون أخرى ويتواصون بالصبر والثبات إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، في هذه الدار المنعزلة ولد الإسلام من جديد وشيد أول ركن من أركانه! إلى هذه الدار المنعزلة كان يأوي أفراد من العرب يهجرون أباطيل أجدادهم وآبائهم، ويهرعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم مسلمين مجاهدين. ولم تمض أيام قليلة حتى صار عدد المسلمين في هذه الدار المباركة تسعة وثلاثين يعبدون الله وينتظرون منه المدد والمعونة، وانضم إليهم رجل لا كالرجال، فلم يرقه أن يبقى المسلمون مختفين خائفين، فالتفت إلى الرسول الكريم قائلا: ألسنا على حق يا رسول الله؟ فقال الرسول: بلى، فصاح الرجل في الجمع: الله أكبر الله أكبر، وكيف نرضى للحق أن يختفي؟ والله لن نبقى هنا بعد اليوم أبدا، وكان ذلك الرجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهكذا كانت خاتمة هذه الدار، دار الأرقم الأمين أول مرحلة من مراحل الإسلام وخاتمة عظيمة رهيبة سارة، إذ تدفق منها المسلمون يشقون بهتافاتهم عنان السماء مرددين الله أكبر الله أكبر، وكان الفضاء والسماء والإنس والجن والملائكة تردد معهم الله أكبر الله أكبر، فقد أصبحوا لا يبالون ولا يخافون في سبيل الإسلام ومحمد.

فلله أنتِ يا دار الأرقم وصاحبك، والعزة لك أيها النبي وصحبك، وصلى الله عليك وعلى آلك والمرسلين، وأهلا وسهلا بك يا عامنا الهجري الجديد، فإن لك في النفوس أثرًا وأي أثر. فقد أهجت منا خواطر كانت ساكنة، وقلوبًا كانت صادئة.

بمناسبةِ رأس السَّنة الهجريَّة الجديدة.

# فِي الشِّعر

وهناك جهود متواصلة بذلتها في نظم الشِّعر، ولكنّي لا أجد منها الآن إلَّا هاتين المرثاتين في رثاء المرحومة نجلاء عبد الهادي، حرم المرحوم نظمي عبد الهادي.

وكانت المرحومة من فضليات سيدات البلد، ولها أيادٍ بيضاء كثيرة في مساعدة الفقراء والمحتاجين، وقد نظمت هاتين المرثاتين على أمل إلقائهما في حفلة الأربعين الي كنا ننوي إقامتها لها، ولكنَّ الظُّروف حالت دون إقامة تلك الحفلة.

أيا قبرًا بهِ خير النِّساء

حباكِ الله مغفرة ونور

ترفَّق واتَّئد يا قبرُ فيمن

أتتك وغادرت فخمَ القصور

أناديها، فهلَّا من جواب؟

فما عهدي بها يومًا نفور!

أيا باكون حول القبرِ كفّوا

أتبغونَ الجوابَ من القبور؟

مفارقة الحياة تركت فينا

أسى ومرارة تدمي الصُّدور

يقول النُّبل وكرم السـجايا

خسـارة لا تعوَّض في دهور

فقـرّي في الجنان مدى الليالي

فنعم الدَّارُ ولدان وحور

سلام الله يغشاكِ دوامًا

ورحمتـه تحوطكِ مثل صور

والمرثاة الثَّانية وهي:

ضعوا الورود على الضَّريح

واقرئوا نجلا السَّلام

وتسابقوا لرثائها

صبّوا الدموعَ بلا كلام

قضت الحياة عليَّة

عظيمة نِعْمَ العظام

وهـذه قصيـدةٌ ترحيبيَّـة أهديتهـا للبطـل المجاهـد العـم عـوني بـك عبـد الهـادي عـلى إثـر الثَّـورة الدَّاميـة سـنة ١٩٣٦:

أعوني أنتَ عونٌ للبلادِ

وأنـت الحصن في وجه الأعادي

وأنتَ الشَّهمُ مغوارٌ جواد

سـميّ للحقّ في أفقِ الرَّشادِ

فعالُـكَ منهجٌ في كلِّ نادٍ

فأنتَ فريدُ عصرِكَ والبلادِ

---

قلوبٌ للعروبةِ واجفاتٌ

وجـلُّ القصدِ مرتبةُ الفلاحِ

فتاةُ بلادِنا التهبت حماسًـا

لخطب ادلهمّ بذي الرّداحِ

نـودُّ لو أنَّنا بين الجراحى

ومـا عسى يفعل مقصوص الجناحِ

هنيئًـا للبلادِ وأنتَ فيها

فأنتَ المنهلُ المشـفي الغليلا

ومرحـى يا ملاذ المجد مرحى

فأنـت طيب ذا الوطن العليلا

فهـذي بلادنا نحن فداها

فلسطين فراديس النّعيما

# الْقِسْمُ الثَّانِي

# الْقِصَّة

# حَمامُ الدَّوْح

اتركوني، اتركوني، وإياكم أن تتدخلوا في شأني! لا تحاولوا أن ترغموني على السكينة والهدوء.

هذه الكلمات الثائرة الصاخبة، التي سمعتها من النافذة المطلة على بيت الجيران في اليوم الأول من شهر محرم من السنة الماضية، أي في نفس اليوم الذي نزلنا فيه هذا المنزل.

كان الأثاث لا يزال مبعثرا في جوانب الدار، والحاجيات المنزلية تملأ جوانب الغرف وزواياها، فلا مفر من العمل، ويدفعني حب الاستطلاع، ويستحثني الفضول أن أتفرغ إلى تلك التي تسكن في الشقة الثانية من منزلنا، والتي سمعت حديثها من النافذة، وهي تثور على من يتدخل في شؤونها، أو يحاول إرغامها على السكينة والهدوء!

ومضى الأسبوع الأول وأنا منهمكة في العمل فلم أعد إلى النافذة، إنما عرفت من «أم ثريا» التي توزع الخبز من الفرن، القريب، أن مستأجر الشقة الثانية موظف من مدينة الناصرة ومعه ابنته الصبية التي أعلنت خطوبتها من عهد قريب.

كنت لا أشعر بعد ذلك إلا وأنا أقف إزاء النافذة، ولست أدري إن كنت أقف تلك الوقفة لأستمع إلى الفتاة مرة أخرى، أو أن طبيعة موقع النافذة يجعلها هدفا لمن أراد أن يخلو بنفسه إلى الطبيعة، حيث الماء والخضراء.

كانت تلك النافذة جزءا من الحائط الفاصل بين الشقتين، الشقة التي ننزلها، والشقة الثانية التي ينزلها أولئك الجيران. ولكنها كانت مغلقة بالمسامير و مغطاة بالستائر من كلا الجانبين، وفي محاذاة هذه النافذة، كانت تقع معظم نوافذ المنزل، حتى أن تلك الواجهة من الحائط الغربي عبارة عن خمس نوافذ متلاصق بعضها بعض، تطل على أبدع المناظر في مدينة جنين الصغيرة، وكأنما تدعوك إليها، لتأخذ بيدك إلى عالم التأمل والتفكير والخيال، فإلى الأمام من ناظريك العمارات الجديدة من شارع المحطة، وكأنها عرائس في ثيابها البيضاء، وقفت بخيلاء وتيه ، الواحدة قبالة الأخرى، وقد فرشت الطبيعة تحت أقدامهن أبسطتها الخضراء، النضرة، وإلى الشمال من هناك، كانت أشجار اللوز المزهرة تعطر الهواء وكأنما ترسل لك بابتسامة ساحرة، أحر تحيات الصباح والمساء، وأما إلى الجنوب من تلك النوافذ، فقد كانت بحق جنة فيحاء!! فالأرض مغطاة بنبات الخبيزة، التي تتموج وتنثني كلما داعبها الهواء، وخلال ذلك النبات تنساب السيول المتدفقة من النبع المعروف بعين نينة، في إهمال طبيعي بديع وكأنها نصال سيوف مرهفة اعتز بها صاحبها الأمير، فسلها من أغمدتها ثم رمى بها على منضدة مجللة بالجوخ الأخضر العربي. وإلى الجانب الآخر من تلك السيول

كانت أشجار الزيتون الخالدة تجثم بعظمة وخيلاء إلى آخر ما تقع عليه العين من تلك الناحية، وتحتها كروم العنب مستلقية على الأرض وكأنما تحتمي بها من غوائل الزمن، أو تخر على جباهها مقرة لها بالعظمة المباركة، والجبروت الخالد القديم.

فهـذا وذاك معـا، كانـا يدعوانـي إلى الوقـوف إلى تلـك النافـذة، فـلا ألبـث أن أنـسى كل شيء! حتـى نفـسي! وأذهـب مـع الطبيعـة في حديـث خافـت عميـق.

مضـت فـترة سـمعت بعدهـا فتـح النافـذة، التفـت فـإذا هـي نافـذة الجـيران الملاصقـة للنافـذة التـي أقـف إليهـا تمامـا، وقـد أطـل منهـا طفـل في الخامسـة مـن عمـره، وسـمعت الفتـاة التـي سـمعتها تتحـدث أول مـرة تخاطـب الطفـل، سـمير، سـمير، إيـاك أن تسـقط! هنـاك تحولـت إلى الطفـل لأجعـل منـه وسـيلة الاتصـال مـع تلـك التـي أسـمعها ولا أعرفهـا، فقلـت لـه:

- أنت سمير؟

- نعم

- كيف أنت يا سمير؟

- ...........

فلم يجب، عندها عدت أقول بصوت مسـموع:

- سـمير، سمير. إياك أن تسقط.

فأطلـت الفتاة مـن النافذة، وهي تضحك ثم قالت

- هيه!! جيراننا؟ أهلا وسـهلا

- وبك، لقد خفت على سمير أن يسقط، فلم أجد بدًّا من تنبيهه، أظنه أخاك؟

- أشكرك، نعم هو أخي، كيف أنتم والمنزل الجديد؟ وهل راقتك هذه المناظر؟

- كيف لا؟ إنها مدهشة ساحرة، لماذا لا تقفين إلى نافذتكم هذه دائما لتتمتعي بهذه المناظر؟

- سأجرب من اليوم أن أقف إليها دائما، وسأدعوك لنقف معا، أليس كذلك؟ سأطرق على هذه النافذة المغلقة لأدعوك

- حسنا، فقط أخبريني ما اسمك؟

- اسمي منور، منور فؤاد.

وفي اليوم الثاني، وكان يوما مشرقا زاهيا، فتحت النافذة ووقفت، وحانت مني التفاتة إلى حديقة اللوز ، فرأيتها، كانت هناك تتعلق في الشجرة بخفة وحذر، وتجمع في منديل معها اللوز الأخضر، ورأتني، فأطلت من بين أغصان الشجرة، ووضعت اصبعها السبابة على فمها تحذرني ألا أتكلم، ثم جمعت أطراف المنديل على ما به من اللوز الأخضر وقفزت عن الشجرة بخفة، وارتقت الدرج وأسرعت إلى النافذة. وقالت وهي مغرقة في الضحك

- اسمعي، إنها ليست سرقة! سمير الشقي الذي فر من المنزل، فلحقته لأعيده، هذا كل ما هناك.

- يـا لـه مـن عنيـد! لقـد رأيتـك تضعينـه في المنديـل وتجمعـين أطرافـه عليـه! يحـق

لـك أن تفعلي به أكثر من ذلك.

- إنك شـيطانة والله! وماذا تريدين؟

- أطعميني! إنني أحبه.

- حبـة واحدة، لم يبق معي غيرها.

- بل ثلاث، يلا، هاتي.

فرمت لي اثنتين وهي تصيح سـاخطة:

- اذهي عني! من دعاك إلي في هذه السـاعة؟

وقفلـت النافـذة بعنـف وذهبـت. هكـذا عرفـت منـور فـؤاد، كانـت دائمـا مرحـة باسـمة، حتـى ثورتهـا كانـت بشـكل مسـتحب لطيـف وكثـيرا مـا كانـت تطـرق النافـذة فـأسرع إليهـا فتقـول:

- دعوتـك لـتري أم ثريـا، وأبـو حسـناء، زوجهـا وهـما يوزعـان أطبـاق الخبـز ويتخاصـمان عـلى قارعـة الطريـق.

- لعلهـا تنكـر منـه هـذا الـزي العـربي اليـوم، لقـد كان البارحـة في اللبـاس الأوروبي أرشـق منه اليـوم، والحـق أن البنطلـون القصير نوعـا، يعنـي تحـت الركبـة بقليـل، يتـلاءم كثـيرا مـع جاكيتـة الكاريـه القصـيرة الأكـمام، فقـط،

ليتـه يلبـس حـذاء غـير هـذا السـاندل الأحمـر ليتفـق مـع وقـاره كشـيخ جـاوز السـتين.

ونغـرق في الضحـك معـا إلى أن يمـر في الشـارع أحـد غـير هـؤلاء فيغـير علينـا مجـرى الحديث.

كان فصـل الربيـع مـن السـنة الماضيـة مـن أبهـج الفصـول وأحبهـا إلى النفـس، فقـد جفـت الطـرق الموحلـة الموصلـة إلى الجنائـن والبسـاتين، وتفتحـت الأزهـار الشـذية العطـرة، وأرسـلت الشـمس أشـعتها الذهبيـة الفاتنـة تعتـذر عـن طـول احتجابهـا مـدة الشـتاء وراء الغيـوم، وصدحـت الطيـور والعصافـير عـلى أشـجار اللـوز المحيطـة بجانبـي المنـزل، وامتـلأت الشـوارع بالسـيدات الـلاتي كـن ينزلـن مـن البلـد إلى هـذه الناحيـة، إمـا للزيـارة أو للترويـح عـن النفـس.

كانـت الشـقة التـي تسـكنها منـور فـؤاد، هادئـة جـدا في ذلـك اليـوم مـا عـدا صوتهـا يـتردد في هـذه الاغنيـة:

ياحـمام الـدوح          ياطايـر في الهواء

تعال عندي لا أنوح أنا وأنت سـوا

كانـت ترددهـا بهيـاج وعصبيـة وانفعـال، ومـضى يومـان ولم أرهـا تقـف إلى النافـذة، ولم أسـمعها تتحـدث أو تغنـي. وفي اليـوم الثالـث، عـادت تغنـي بنفـس الثـورة والانفعـال أغنيتهـا. ياحـمام الـدوح، هنـا أسرعـت إلى النافـذة

ودعوتها. فأطلت، كانت عابسة شاحبة، متراخية على نفسها بفتور وملل فقلت

- مالك يا ميمي؟ أراك مطروبة جدا هذه الأيام!

تململت قليلا وقالت:

- إنها ليست أغنية، إنها دعوة للحمام، ألا ترينه هناك على أغصان الشجر يغرد؟

- ترينه يغرد، وتدعينه لينوح؟

- قد يلذ له النوح أكثر من التغريد، أعني، قد يرتاح إلى النوح إن كان يعاني هما.

- ما هذه الآراء المظلمة يا منور؟ دعينا من النوح والنحيب وقولي لماذا أنت شاحبة هكذا؟

- أنا مريضة وأشعر بإعياء شديد

- سلامتك! اذهبي إلى فراشك واستريحي، فإنه يبدو عليك الإعياء.

ومضى اليوم الثاني ولم أرها، وفي اليوم الثالث في الصباح الباكر، كانت السيارة تقف بالقرب من باب الشقة الثانية

إذن فقد نقلوها إلى المستشفى. ماذا جرى لها؟ وهل هي مريضة إلى هذه الدرجة؟ ولم نعد ندري من أمرها شيئا بعد ذلك.

أقبل الصيف بزفراته الملتهبة، وحرارته اللافحة، وتوقفت الأعمال وعطلت المدارس وتحلل النشاط في الاجسام بفعل وطأته الشديدة، وأخذ الناس يفكرون في الذهاب إلى البلدان الباردة ليستريحوا من هذا الحر الشديد. وحزمنا ثيابنا وذهبنا إلى القدس، تلك المدينة الشريفة المباركة لنمضي بضعة أيام فيها، أخذنا في التجوال في هذه المدينة العامرة، فزرنا الحرم الشريف حيث المسجد الاقصى الذي بارك الله حوله، تحوطهما هالة من القداسة والمهابة، فتبعث في أعماق النفس أحر نداء للإيمان والعبادة، وذهبنا إلى كنيسة القيامة المقدسة، ثم مررنا بعمارة فندق الملك داود الذي كثيرا ما نزله الأمراء والملوك! وقبل أن نرجع، عرجنا على المستشفى الفرنسي الكبير، وأخذتنا الراهبة إلى البهو حيث وقفت تتحدث معنا عن نظام هذا المستشفى الكبير.

كانت قبالتنا حيث وقفنا غرفة بها طفل مريض، وقد وقفت بالقرب منه راهبة تراقب ترديد أنفاسه المتقطعة بعطف شديد، وسمعنا الطفل يبكي ويتكلم بصوت خافت ضعيف، فأصغينا، فإذا الراهبة تقول له:

- تريد تلك الممرضة يا وليد؟ سأرسلها لك، لتغني لك وتدللك.

ورأيناها تغادر الغرفة، وتمر بنا، لتذهب إلى البهو الكبير.

وعادت بعد قليل، وبرفقتها ممرضة طويلة القامة نحيفة الجسم، حنطية اللون، تلبس الثوب الأزرق المخطط وفوقه المريول الأبيض والياقة البيضاء المنشاة، وعلى رأسها ذلك الغطاء الأبيض المعروف، ومرت بنا مسرعة إلى غرفة الطفل، حيث وضعت إلى جانبه كرسيه

جلست عليه، ثم انحنت على الطفل تضمه إلى صدرها، وكأنها أمه الرؤوم، وقالت تجيب الطفل

- أغني لك يا وليد؟؟ آه يا وليد... اسمع.

ولم تلبث أن سمعنا صوت الممرضة يتجاوب في أنحاء المستشفى بلهجة رقيقة حنون:

ياحمامالدوح يا طاير في الهواء

تعالعنديلاأنوح أنا وأنت سوا

رباه! إني أعرف هذا الصوت! واعرف هذه الأغنية! فمن التي تغنيها يا ترى؟! وقفزت إلى غرفة المريض لأرى! وتبعتني شقيقتاي، وكانت الممرضة لا تعلم بوجودنا، وكذلك لم تشهر بوقع أقدامنا حينما دخلنا عليها! فقد كانت مستسلمة للطفل الذي كان يعبث بشعرها بكلتا يديه، بينما طوقته بذراعيها في حنان عجيب، وراحت تردد عليه أغنيتها: «يا حمام الدوح»

وهنا لم أتمالك أن أخذت وجهها بين يدي، ورفعته من بين يدي الطفل لأتأمله مرة أخرى. وبنظرة قصيرة سريعة، لم يبق عندي مجال للشك أنّها منور! منور فؤاد التي كانت تسكن في الشقة الثانية من منزلنا، ثم مرضت، ونقلوها إلى المستشفى، ولم نعلم من أمرها شيئا بعد ذلك.

وأمسكت بها أناديها، منور، منور، منور ،... وكانت قد انتبهت إلى وجودي وعرفتني حق المعرفة، فأرخت الطفل من بين يديها إلى السرير ووقفت

تحـدق بنـا بعينـين ملوثتـين بالدمـوع.

كان كل واحـد منـا يرتجـف! وكل منـا يبـكي! وكل منـا مطـرق إلى الارض لا ينبـس ببنـت شـفة.

وأخيرا قطعت حبل السـكوت فقالت:

- ما أسعدني برؤيتـك؟ مـا الـذي أتى بكـن إلى هنـا بعـد هـذه المـدة الطويلـة؟

- ساقتنا يـد الأقـدار لنلقـاك يـا منـور. قـولي لنـا أولا لمـاذا قطعـت عنـا أخبـارك؟ ومتـى أصبحـت ممرضـة؟ ومـا الـذي صيرك إلى هـذه الحالـة؟ لقـد تركتنـا حـيرى لا نـدري مـن أمـرك شـيئا

- آه... آه مـا أقسى القـدر ومـا أظلـم الأيـام ... لقـد اخـترت البقـاء هنـا علنـي أتعـزى في هــذا المحيـط الزاخـر بـالآلام ...

- ومـا الـذي يؤلمك يا منور؟ ترى ما هو ألمك؟

وهنـا اشـتد امتنـاع وجههـا، وارتجـاف أوصالهـا، وكأنهـا مسـتها موجـة مـن الكهربـاء، ثـم واصلـت الحديـث فقالـت:

- ألا تعرفين شيئا عن آلامي يا عزيزتي؟

- إن معرفتـي بـك قصـيرة كـما تعرفـين، وأصارحـك أني لا أعـرف عـن آلامـك شـيئا.

- ولعلك لم تعلمي ما جرى أخيرًا؟ لِـ.. سـمي... لسـميح...

- آه، لقـد عرفـت مـن هـذا المحبـس الـذي تلبسـينه في يـدك أنـك مخطوبـة، وعرفـت كذلـك أن اسـم خطيبـك سـميح، فـماذا جـرى لـه يـا تـرى؟؟

- هـذا مـا أريـد أن أفـضي بـه إليكـن ... لقـد مـضى عـلى خطوبتنـا سـتة أشـهر كنـا خلالهـا مثـال الخطيبـين المتفاهمـين، ولمـا حـضر لزيـارتي آخـر مـرة، لا أدري كيـف قابلتـه بتلـك الثـورة الصاخبـة. كنـت أعـرف أنـه تـرك عملـه لخـلاف دب بينـه وبـين أحـد مديريـه، كان موظفًـا في شركـة البـترول في حيفـا ولـه في ذلـك العمـل مسـتقبل عظيـم. لقـد قابلتـه بثـورة مـن العتـاب والتأنيـب واللـوم. هكـذا قـدر لي أن أقابلـه، فقـد كنـت أتصـور آمالنـا وأحلامنـا تذهـب أدراج الريـاح.

- إنـه لـن يحقـد عليـك إذا اعتـذرتِ إليـه، وشرحـتِ لـه بصـورة لطيفـة، أن الغـيرة عـلى مسـتقبلكما هـي التـي دفعتـك لثورتـك تلـك!

- ليتنـي أراه لأعتـذر إليـه! لقـد شـاء سـوء الطالـع ألا نتفاهـم، لقـد مـضى يتحـدث إلى أبي سـاعة قصـيرة، ثـم تركنـا ولم يعـد. ولمـا رجعـت إلى نفـسي وتصـورت فداحـة خطئـي، ندمـت أشـد النـدم، ولكنـه لم يخطـر لي ببـال أن يقـدم عـلى فعلتـه.

- وماذا فعل؟؟

- لقد أرسل لي رسالة عن ظهر الباخرة «برنسيس» التي أقلعت من مرفأ حيفا في ذلك الوقت متجهة إلى الولايات المتحدة، وقد قال فيها أنه لا يدري إلى أين يذهب في هذه الرحلة الطارئة، إلا أن الدنيا تنكرت له، حتى أن خطيبته ثارت عليه؛ لذلك فلن يعود إلى هذه الديار إلا إذا صادف نجاحا يستغله لتأمين مستقبله، وإلا فعلى فلسطين ومن فيها السلام.

كانت تتكلم باضطراب شديد ودموعها تتساقط إلى الأرض مدرارة غزيرة؛ قلت لها:

- لعل الله يكتب له الغنيمة والسلامة فيرجع إليك بعد ذلك من جديد

- ها أنا أنتظره هنا ... فإن رجع فها أنا بانتظاره، فأستسمحه إلى أن يسمح ثم نعيد المياه إلى مجاريها، وكأن ما كان لم يكن، وإلا ... فأبقى هنا، فإني أجد بعض السلوى في هذا المحيط الزاخر بالآلام والأوجاع.

وأقبلت الراهبة على صوت بكاء الطفل الذي لم نفطن إليه، ونظرت إلى الممرضة نظرة زاجرة، فراحت الممرضة تترنح في مشيتها إلى سرير المريض ثم جلست على ذلك الكرسي بجانبه، وانحنت إليه تضمه

إلى صدرهـا وتطوّقـه بذراعيهـا، ولمـا أنـس الطفـل لحنانهـا وعطفهـا، راح يعبـث بشـعرها بكلتـا يديـه، بينـما أخـذت تـردِّد عليهـا أغنيتهـا المفضّلـة «يـا حـمام الـدّوح».

# صَديقَةُ الأحزانِ

رأيتها بعد أن توفي زوجها الأول بسنة، مربوعة القوام وسيمة القسمات، حزينة النظرات، تلبس الثياب السود والمنديل الأسود، وقد أكسبها هذا اللباس الحالك هالة من السحر والروعة، ولكن بشكل باك حزين.

وجلست قبالتها وكان حولها عدد كبير من الزائرات يتبادلن الحديث ويتناقلن الأخبار، والكل، إما متحمس لرأي يبديه، أو مصغ لذلك الرأي لتفنيده وانتقاده، كعادة أكثر الاجتماعات عندنا، إلا وفية، تلك السيدة المتشحة بالأسود، وكأنها لم تنتبه لهذا الجهاد والهياج، أو كأنها تسبح في عالم الأشباح والخيال، وما أبعدها عن عالمنا هذا! وتحوَّلتُ إلى تلك السيدة أتعرَّفُها، فقد جعلتني أنسى جميع من حولي من الحاضرات إلا هي. إنها توحي للنفس أن ترافقها إلى عالمها المقدس الحرام، عالم اليأس والخيال، ابتسمت لي ابتسامه صفراء شاحبة، ولكنها رائعة، فإن للشحوب روعته لأنه تحمل معاني الألم والعناء. سألتني عن حالي وكأنما أدركت أنني لا أحول نظري عنها، ثم قدمت شقيقتها لنتعارف، وتركتنا معا، ثم استسلمت للخيال.

هذه أول مرة رأيت فيها وفية، وقد تركت في نفسي أثرًا لم تمحه الأيام، وتعاقبت السنون، ولم أسمع أحدا يذكر وفية، إلا وذكر ذلك السحر وتلك الروعة التي تحوطها، ولكنها روعة حزينة وسحر كئيب. وأخيرا

تقدم رجل يخطب وفية؛ رجل من أعيان البلدة وأثريائها المعروفين، وتمت الخطوبة وفرح لها الجميع. لعل الله أرسل إلى وفية من يأخذ بيدها من وهدة يأسها ووحدتها إلى عالم البشر والأمل؛ عالم الإنسان الحي والحياة الجديدة، فأقبلت، وكانت ترتدي ثوب العرس الأبيض الفضفاض، وقد تلألأ في صدرها عقد من الماس زادها جمالا وبهاء، وعلى مفرقها ذلك الإكليل الأبيض وقد بدت فيه كأنها الملكة، فكل ما فيها جميل في جميل! ووجهت نظري إليها مرة ثانية، فإن لها في خيالي صورة حية منذ رأيتها لأول مرة، لقد طغى الروج، والبودرة على ذلك الشحوب الذي أعهده، ولكن ابتسامتها لا تزال شاحبة، إذن فقد اعتادت وفية الألم، وسيمضي وقت قبل أن تخلع عنها كابوسه الرهيب! وصرت أجتمع بوفية كل يوم تقريبا، إما في بيتنا أو بيتها، أو في الاستقبالات التي نجتمع فيها معا، وعرفت وفية! كانت تضحك وتمرح، وتتحدث وتجادل، ولكنها فقدت روعتها وسحرها، ذلك السحر وتلك الروعة التي كانت تبدو بها وهي حزينة، ولم تعد تسترعي الانتباه أو النظر، فقد أصبحت كأكثر السيدات لا تتميز بطابع، ولا تنفرد بصفة، كل ما هنالك أنها سيدة حلوة القسمات، لطيفة الحديث، حسنة الأخلاق، على جانب عظيم من الكمال. إنها مليحة ولكنها ليست رائعة، واحترقت يد وفية بالماء الساخن وهي تحضره في المطبخ وكنا عندها، كانت لا تزال بدون مكياج، وفي ثوب بسيط من ثياب الصباح. سمعنا آهة مكتومة، وكنا في الغرفة القريبة من المطبخ، فسألنا دعساء

خادمتها: من يتأوه يا دعساء؟ فقالت وهي مسرعة إنها وفية، وقمنا إليها، لقد كانت آثار الحروق في يدها حمراء مزمهرة، ومع هذا فقد كانت تبكي وتتأوه وتتلوى من الألم بشكل صامت حزن. أخذناها إلى سريرها، وصار كل من في البيت يفكر في إسعافها، فمنهم من أسرع إلى إحضار المياه الباردة، ومنهم من أخذ يبحث عن مرهم الزمبوك، ومنهم من أرسل يستدعي الطبيب، إلا أنا، فقد وقفت إزاءها أرقب وجهها وهي تتألم. لم أجرب أن أخفف عنها أو أطمئنها، فقد كانت وفية في هذه الحالة، حالة الألم والشحوب فاتنة ساحرة كما رأيتها لأول مرة. إني أطرب لبكائها وتألمها، كما لو أني أسمع أغنية أو أنشودة؛ لك الله أيها الألم فكم أنت جميل بها، وكم هي جميلة بك! وحضر الطبيب وأسعفها، خفت دموعها، وغادرت وجهها تلك المسحة من الألم، بل قل من السحر والوداعة، فابتسمت ثم أسرعت إلى غرفتها تستبدل ثوبها، وتغطي وجهها بطبقة من المساحيق الزاهية الصارخة تستر به ذلك الشحوب، وما كان أجمله عليها.

من منا يعرف قبل اليوم إن كانت الآلام مخلصة وفية؟ والأحزان إن صديقة ثابتة إلى آخر حدود الوفاء والثبات! هكذا كانا؛ أي الأحزان والآلام، مع وفية. استهلت حياتها حزينة صادقة الحزن، فبادلتها الأحزان هذه العاطفة النبيلة وجعلت من نفسها صديقة لها مدى الحياة! وتفتحت أسارير نفسها على نداء الألم يرتع بين جوانحها، فسلمته زمام

قلبها وعقلها ونفسها طائعة مختارة، ثم بالغت في الحفاوة به حتى رسمته سطورًا رائعة ساحرة من ذوب قلبها وفؤادها، على صفحات وجهها ونفسها، فبدا رائعًا ساحرًا بكل ما للسحر والروعة من معان! فقابلها على كرمها معه هذا الكرم الحاتمي، بأن قدم لها هو الآخر زمام نفسه ومفاتيح خزائنه، ثم قال لها: إنني صديقك الذي لا يخون، ورفيقك الذي لن ينساك، فارتعي في بحبوحة عالمي ما شئت، وحلقي في سمائي ما استطاعت أن تحملك جناحاك، ولكني أعلم أن ليس لك جناحان يا وفية! فسأدلك كيف تستطيعين التحليق في جوي وسمائي، استعيني بصديقي الحزن أن يعيرك وقودًا ونارا، ثم هيئي لها مكانا بين جنبيك، وإياك أن تبخلي عليها بالزفرات حارة ملتهبة؛ لكي تساعد على أوارها، ولا تخافي أن تصيبها دموعك المدرارة فتطفئها! فسأكون أنا وصديقي والحزن قائمين على حراستها، والسهر على قوة اشتمالها، وعندها يا وفية تستطيعين أن تطيري في جوي، وتحلقي في سمائي بقوة النار والوقود، وأهلا وسهلا بك يا وفية ومرحبا.

نعم هكذا بادلها الحزن إخلاصًا بإخلاص، والألم وفاء بوفاء. لقد كانت لا تزال في غرفة نومها عندما دخلت دعساء خادمتها تلطم على صدرها ورأسها، وقد انهارت دموعها وعلا صياحها بشكل يدل دلالة أكيدة على وقوع حادث مروع، وعرفت وفية كل شيء بدون أن تسألها فقد حدثتها نفسها بكل ما جرى حتى كأنها شاهد عيان، لقد ذهب

زوجها إلى ضياعه ليضبط حسابات الإنتاج، وقال إنه سيرجع قبل المساء ولكنه لم يرجع، وقد ظنت أن أشغاله الكثيرة عاقته عن المجيء، وأما الان فقد تأكدت أنه قد حدث له حادث، ولابد أن تكون سيارته قد تدهورت به فقتلته، فهذا ما أكدته وفية من نفسها بدون أن يخبرها به أحد. لقد جالت هذه الخواطر في رأسها بسرعة البرق، ولم تقل شيئا ولم تبك، بل ترنحت وسقطت إلى الأرض وراحت في غيبوبة طويلة.

وطار الخبر في المدينة، وعلا الصراخ والهياج، وحضر الأهل والأقارب، وكان لذلك الخبر المشؤوم؛ خبر مصرع زوج وفية الذي لم يمض عليها معه أكثر من ثلاث سنوات أسوأ الأثر. مسكينة وفية، مسكينة، لقد قضت حياتها حزينة متألمة. ما أعظم مصابها، وما أفدح خطبها، وهرعنا إلى بيت وفية، فلها عندنا مكانة، ولها في نفوسنا ذكرى. ليتنا نستطيع مواساتها والتخفيف عنها، إذا كان إلى ذلك سبيل.

كانت أصوات الصراخ والعويل تشق عنان السماء، ومنظر النائحات الباكيات من أهل الفقيد يذيب الصخر ويفتت القلوب، ولكني لا أرى بين النائحات وفية، فأين هي يا ترى؟ والتقطت دموعي بمنديلي لأبحث عنها! لأراها أين تكون؟ وسألت عنها عجوزا قريبة مني، فقالت: وفية؟ كان الله في عونها، هذه التي قضت الحياة بائسة حزينة، لقد فوجئت بالخبر وهي لا تزال في سريرها في السادسة صباحا، فلم تقو على احتمال الصدمة، خصوصا أن زوجها خرج من عندها

سالما معافى صباح البارحة، ثم تدهورت به سيارته فقتلته، مسكينة ما أعظم مصابها! ولم نلبث أن سمعنا دوي السيارات بالقرب من المنزل، وتناقلت الألسن هذه الجملة الرهيبة: لقد أحضروا الفقيد، ها هم قد أحضروه، وصاح الرجال بأصواتهم الجمهورية المرعبة: أفسحوا الطريق إلى غرفته ودعونا نضعه فيها، وتراءى الجثمان محمولا على الأعناق، يا لله! ما أقسى هذا المشهد وما أفظعه، لقد ضج المكان بالبكاء والصراخ والولولة، وساد المكان الهرج والمرج، ولم يبق أحد إلا وبكى بكاء مرا من هول ذلك المصاب، وأحاطت النائحات بالفقيد إحاطة السوار بالمعصم، وترامت على صدره ورأسه ويديه شقيقاته وقريباته يبكينه ويودعنه صائحات منتحبات، أما وفية، تلك الحزينة المذهولة، فقد جلست تحت قدميه تذرف دموعا قد يظنها المرء تغترفها من بئر، ثم تتلوى وتتأوه، ثم تهوي على قدميه تدفن وجهها بهما وكأنما تتخلص من وخز نصال، ولكنها كانت لا تصرخ ولا تعول حتى في أحرج الأوقات. لقد كان حزنها صامتا رهيبا، ولكنه قاتل لا يرحم! ورأيتها بعد ذلك بشهر. لقد كانت وفية التي عرفتها لأول مرة؛ تلك التي تلبس الثياب السوداء وتغطي رأسها بذلك المنديل الأسود، زائفة النظرات شاحبة اللون، وعليها تلك الحالة من السحر والروعة والوداعة والجلال.

وجلسنا لنتحدث، فما اشتركت، ووجهنا إليها بعض الحديث علنا نستدرجها إلى مشاركتنا فما انتبهت! وأخيرا، وبعد أن رأت أننا لا نحترم صمتها الرهيب، نادت شقيقتها وقالت: «بربك يا أختاه أخبريهن كيف

وقـع ذلـك الحـادث المريـر». ثـم أشـاحت بوجهها عنـا، حيـث جعلـت قبالتهـا الحائـط، وابتسـمت ابتسـامة شـاحبة بلهـاء واستسـلمت للخيـال.

والتفتنـا جميعـا إلى الحائـط وإذا بـه يحمـل صـورة كبـيرة؛ صـورة رجـل شـاب، يقـف بجانـب مكتبـه، وبالقـرب منـه أحـد الفلاحـين يقـدم لـه رزمـة مـن الأوراق الماليـة في الدفعـة الأولى مـن حسـابات الإنتـاج.

# كيفَ قتلتُ نَفسي

في تلك المدينة التاريخية العظيمة، بل تلك القلعة الجبارة الحصينة الجاثمة بين جبلي عيبال وجرزيم، مدينة نابلس التي لعبت دورا كبيرة في تاريخ فلسطين، أكسبها هالة المجد وسفر الخلود، ذهبنا لنقضي عطلة الربيع من السنة الماضية، وكأنما ذهبت مسوقة بيد القدر لأوثق عرى الصداقة مع فتاة تعد اليوم في عداد المجانين! قد تبدو صداقة المجانين نوعا من الجنون والخبل! وقد تقولون إن أحاديثهم حتى قبل الجنون عبارة عن ذهول وشذوذ وهذيان، بسبب الحالة التي يستعدون لها بطبيعتهم؛ أي حالة الجنون، ولكني آمنت أشد الإيمان أن الجنون لا يصيب إلا ذوي المشاعر الحية النبيلة والعقول الجبارة المفكرة الذين أدت بهم رقة مشاعرهم وسعة عقولهم إلى حالات الجنون، وحتى إذا لم يمكن تطبيق هذه النظرية على كل المجانين، فلا مندوحة من تطبيقها على هذه الحالة على الأقل.

وصلنا نابلس في العاشرة صباحا، وكان يوما رائعا مشرقا من أيام الربيع، وما هبطنا المدينة حتى شعرت بنفسي تحدثني بشيء؛ شيء لا أدري كنهه ولا معناه، إنما كنت أشعر أن هناك شيئا ينتظرني وأنا لا أعلمه، وقابلنا الأهل والأقارب بثورة من الترحاب والعتاب، واجتمع الكل للسلام علينا، ولكن كانت بنفسي أسئلة كثيرة، ولكني لا أدري ما هي. التقيت بخالتي وقلت: كيف جميع صديقاتي عندكم، ألا تعرفين؟ قالت: إنهن بخير ويسألن عنك كلما رأيت إحداهن، رباه! ما هذه الثورة في نفسي إذن؟ فوالله ما شعرت بمثلها وأخطأت! فلا بد أن

هنـاك شـيئا هامـا سـيقع تحـت نظـري عـلى الأقـل.

تناولنـا الغـداء، وأخـذت صحيفـة كانـت قريبـة منـي، وحاولـت أن أقـرأ، وسـمعت طرقـا عـلى البـاب، مـن الطـارق يـا تـرى؟ لا شـك أنـه أحـد أولاد خـالي راجعـا مـن المدرسـة، ودخـل الطـارق. كانـت فتـاة تناهـز الثامنـة مـن عمرهـا، بيدهـا رسـالة وضعتهـا عـلى الطاولـة، ثـم سـألت: ألم تحـضر هديـة هـذه العطلـة يـا تـرى؟ عرفـت أن الفتـاة تريـدني أنـا، فقمـت إليهـا وقـد أجابـت خالتـي: هـا هـي قـد حـضرت اليـوم بالـذات، ثـم التفتـت إلي وقالـت: هـذه ثالـث مـرة تسـأل فيهـا عنـك هـذه الفتـاة. اقتربـت منهـا ولكنـي لا أعرفهـا، إنهـا ليسـت شـقيقة إحـدى صديقـاتي، ولكنهـا تقدمـت إلي وسـلمتني الرسـالة وتركتنـي وذهبـت. فضضـت الرسـالة وأنـا متعجبـة، فـإذا هـي رسـالة قصـيرة وهـذا نصهـا:

«عزيزتي الانسة هدية

قـد تعجبـين عندمـا تريـن رسـالتي هـذه، فأنـت لا تعرفيننـي، وأنـا لا أعرفـك، ولكنـي عرفـت أنـك تكتبـين القصـة الإنسـانية، وأوفيهـا حقهـا مـن البحـث والتحليـل، فرأيـت أن اتصـل بـك لنتعـارف، فهـلا حققـت لي هـذه الغايـة؟ إني أنتظـر، هـذا مـع جزيـل سـلامي

سنية أحمد»

تعجبـت جـدًّا لأمـر هـذه الرسـالة وصاحبتهـا! مـا معنـى هـذا؟ سـنية أحمـد تدعـوني لنتعـارف، والدافـع لهـذا التعـارف، أننـي أكتـب القصـة! فكيـف؟؟

هـل أفهـم مـن رسـالتها أنهـا تريـد أن تحدثنـي عـن قصـة إنسـانية ربمـا تتعلـق بهـا! مـن يـدري؟! ولكنـي شـعرت بـأن الهواجـس التـي حدثتنـي بهـا نفـسي لا بـد أن يكـون لهـا علاقـة بهـذه الفتـاة.

ولم تـبرح ذهنـي رسـالة سـنية أحمـد طـول الليـل، فكنـت أتصـور صاحبتهـا بعـين الخيـال، وأتحـدث إليهـا كـما أتوهـم، عـن مشـكلة مـن المشـاكل الداخليـة الرهيبـة، التـي تمثـل بـين جـدران أربعـة، فـلا يُعـرَف عنهـا شيء مـن وراء تلـك الجـدران، وأصبـح الصبـاح، وكان الجـو مشرقًـا والهـواء عليـلا يبعـث في النفـس النشـاط والأمـل. انتظـرت أن تحـضر سـنية، فقـد كنـت أحـوج مـا أكـون إلى الحديـث؛ إلى التعـارف، إلى التأمـل والتفكـير. وجلسـت أنتظـر في الفرنـدة. كانـت قبالتـي حيـث جلسـت عيـادة طبيـب الأسـنان، كانـت العيـادة تعـج بالزائريـن، وكان الخـادم في العيـادة يهـرول مـن تلـك الغرفـة إلى تلـك، يحمـل معـه فوطـة مبللـة يمسـح بهـا ارض الغـرف ريثـما حـضر الطبيـب. لقـد كان منظـرًا عاديـا مألوفـا، ولكنـي كنـت والحـق يقـال، أتأمـل كل مـا تقـع عليـه عينـاي أو تسـمعه أذنـاي، وطـرق البـاب ودخلـت، تلـك الفتـاة التـي حـضرت البارحـة وأحـضرت معهـا الرسـالة، تقدمـت إلي وقالـت: لقـد ارسـلتني لـك سـنية، كانـت تنـوي أن تتـشرف بزيارتـك لـولا شـقيقتها المريضـة، إنهـا لا تسـتطيع تركهـا، فهـلا تفضلـت بالذهـاب إليهـا؟ إنهـا تنتظـرك مـن أمـس. قلـت للفتـاة: ومـن تكونـين لسـنية؟ هـل أنـت شـقيقة لهـا؟ فقالـت الفتـاة: كلا أنـا لسـت شـقيقتها، أنـا جـارة لهـا فقـط، فهـي تسـكن في الطابـق الأعـلى المطـل عـلى بسـتاننا، فـإذا أرادت شـيئا وقفـت عـلى السـطح ونادتنـي، فأذهـب لهـا حيـث تريـد، قلـت: ومـع مـن

تسكن سنية، يعني من يكون عندها إذا ذهبنا إليها في هذا الصباح الباكر؟ قالت: سوف لا تجدين عندها أحد، فهي وحيدة في البيت مع شقيقتها المريضة، وفي الشقة الثانية من البيت يسكن عمها وعائلته. قلت لها: إذن انتظريني ريثما أستعد. ثم ذهبت ولبست ثيابي ورافقت الفتاة.

وكانت تتقدمني في شوارع رطبة مظلة كأكثر شوارع البلد في نابلس، وكان المشي في هذه الشوارع يتطلب عناية، لأن أرضها مرصوفة ببلاط صغير متكسر، وأغلب ما يكون مبللا؛ لأن الطبقة الفقيرة هناك لا تزال تنقل المياه إلى بيوتها بوساطة القرب (كيس من جلد الحيوان يملأه رجل من النبع ويحمله إلى البيوت) وكثيرا ما تزل القدم إذا تهاون السائر لصعوبة الطريق وكثرة الازدحام، وكانت تنبعث رائحة معامل الصابون من على جانبي هذه الشوارع المسقوفة، فتبقى هذه الرائحة قوية مضغوطة لقلة تسرب الهواء.

وأخيرا وصلنا إلى بوابة كبيرة ترمز إلى مجد غابر، وعز قدم، ودخلت الفتاة فتبعتها، كانت في مدخل البوابة ساحة كبيرة ولكنها مهملة، تكدست على جانبها الأتربة والاعشاب، وكان إلى جانب هذه الساحة درج ضيق صعدناه إلى الطابق الأعلى، كان هذا الطابق أشبه شيء بالقلعة، مؤلفًا من عدد كبير من الغرف الواسعة جدا، وبين تلك الغرف برك للمياه ولكنها مهجورة، وحول هذه البرك بلصق جدران الغرف مقاعد طويلة بنيت من الحجر، كما أن أرض الدار جميعًا رصفت بالبلاط الحجري الكبير، ولكنه أيضا متكسر يدل على قدم

عهده ومضي زمنه. وأخذتني الفتاة إلى باب جانبي في الدار دخلنا منه إلى دار أخرى شديدة الشبه بالدار التي تركناها، إلا أن هذه قد تداعى جانب منها بفعل الزلزال، ثم وقفت الفتاة على درجة قريبة من باب مفتوح، وصفقت بيديها، وتركتني ومضت... ووقفت لحظة ظهرت بعدها فتاة رحبت أجمل ترحيب، ثم أخذتني إلى الداخل، وجلسنا. كانت تناهز الثلاثين، طويلة القامة سمراء اللون حادة النظرات ممتلئة الجسم، تلبس ثيابا بسيطة، ولكنها على جانب كبير من الأناقة والذوق. كلمتها فإذا هي رزينة عاقلة تتكلم بلهجة أخاذة تأخذ بمجامع القلوب، وأصغيت أستمع لها بهم وجوع. سألتني عن حالي ثم قالت: لقد أزعجتك بدعوتي يا أختاه، فربما حدثت نفسك بأني فتاة شغوفة بالاجتماع والتعارف لمجرد اللهو والتسلية! خصوصا وأنا لا أعرفك، أليس كذلك؟ شعرت أن الفتاة تكتم في نفسها عنا. وتعاني في أعماقها هما، فكيف أستطيع أن أثبت لها أنني شعرت معها من الأعماق؟ تحولت إليها بكل قواي، نظري وأفكاري وعنايتي واهتمامي، ثم نظرت إليها نظرة، حاولت أن أودعها كل ما أشعر به نحوها من إخلاص وعطف، وقلت: أنا عرفت أنك تثقين بي مذ قرأت رسالتك، فهلا تجديني أهلا لثقتك؟ أرجوكِ أن تعتبريني صديقة يهمها أمرك، بل شقيقة يؤلمها ألمك، اسمعي، لا تحاولي أن تلجئي إلى المقدمات والتكلفات، فأنا قريبة من نفسك وأستطيع أن أفهمك. ابتسمت وقد بدا عليها الارتياح ثم صمتت كمن يستجمع قواه ليدلي باعتراف هائل، أو كمن يتثبت من شجاعته قبل إقدامه على أمر، وارتجفت قليلا كمن تمر به ذكرى مؤلمة. ثم رفعت عينيها إلي، ولم تزل صامتة.

يـا اللـه، إنهـا مخيفـة، ورهيبـة، مرعبـة. إنهـا تبـدو كالطائـر الذبيـح، ليتهـا تتكلـم فتخلصنـي مـن هـذا العـذاب. كانـت كلـما ازدادت صمتـا ازدادت عضـلات وجهها تقلصًـا، ونظراتهـا صرامـة وقـوة.

وأخـيرا أرسـلت ضحكـة جوفـاء جافـة أشـبه بالعويـل، لقـد شـعرت أني أنهـار أمـام هـذه الفتـاة الذبيحـة. لقـد توتـرت أعصـابي وتملكنـي الرعـب لمجـرد النظـر إليهـا. إنهـا تعـاني آلامـا نفسـية بشـكل مخيـف، وسـمعنا طرقـا عـلى الحائـط، ولكنهـا لم تنتبـه، كان الطـرق آتيـا مـن الغرفـة المجـاورة، يتبعـه أنـين خافـت حزيـن. لم أتمالـك أن أمسـكت بهـا أهزهـا بشـدة كي تنتبـه، بينما عـاود الطـارق يـضرب الحائـط بإلحـاح شـديد. رفعـت رأسـها ببطـء إلى بـاب الغرفـة المجـاورة، ثـم ردت طرفهـا إلي وهـي تقـول: لا تخـافي، إنهـا شـقيقتي المريضـة، وأظنهـا تحتـضر، قالتهـا بلهجـة طبيعيـة هادئـة جعلتنـي أشـعر كأن الارض تميـد تحـت قدمـي؛ شـقيقتها تحتـضر! ثـم لا تفقـد هدوءهـا وسـكينتها، حتـى لا تحـاول أن تكـون إلى جانبهـا عـلى الأقـل!

وقمـت إليهـا، إلى سـنية الجالسـة أمامـي، وأمسـكت كتفهـا بيـدي وصرخـت. أو مـن تكونـين مـن البـشر يـا سـنية؟ أخبرينـي فأنـا لا أفهمـك، قومـي إلى شـقيقتك التـي تمـوت وأنـت بعيـدة عنهـا، ألا تسـمعين طرقاتهـا عـلى الحائـط؟ لعلهـا تريـد أن تودعـك قبـل الرحيـل. كان اللـه لـك يـا سـنية مـا أتعسـك ومـا أشـقاك. قومـي إلى جانبهـا علهـا تشـعر بقربـك وحنانـك فتسـتريح. خذينـي معـك لأراهـا، هيـا، هيـا. وأخذتهـا مـن يدهـا وذهبـت. كانـت المريضـة لا تتجـاوز الحاديـة عـشرة، تـدل ملامحهـا عـلى أنهـا حقيقـة تحتـضر. أسرعـت سـنية إلى شـقيقتها ووقفـت إزاءهـا لحظـة قصـيرة،

ثـم عـادت إليَّ، سـألتني: هـلا زلـت مولعـة بالقصـة؟ قلـت: بـلى، قالـت: إذن دعينــي أحدثــك؛ كانــت قســمات وجههــا جامــدة متوتــرة، وأعصابهــا متصلبــة ثائــرة، والكلــمات تتقــاذف مــن فمهــا كالســيل الجــارف، ولكنهــا لاذعــة محرقــة، وتابعــت الحديــث وصوتهــا يتهــدج.

«أنــا لم أخلــق مجــردة مــن الشــعور كــما تتوهمــين؛ كانــت لي نفــس أبيــة حساســة، ولكنــي قتلتهــا لأســتريح، إن قتــل النفــس جنايــة، ولكنهــا ليســت جنايتــي أنــا. آه مــا أقــسى الجنــاة الآثمــين. كان أبي شــيخًا مريضــا، ولم يكــن لــه مــن الأمــل إلا شــقيق واحــد، هــو عمــي الــذي يســكن في الشــقة الثانيــة، وأمــا أمــي؛ تلــك التــي لــن أنــسى لهــا جنايتهــا فقــد مزقتنــا شر تمزيــق؛ مزقتنــا بطيــش ونــزق بــلا رحمــة ولا هــوادة، هــل أدهشــتك؟ مــالي أراك تنظريــن إليَّ هكــذا؟ أنــا اعلــم أنــه مــن العــار أن أذكــر أبويــن ميتــين بهــذه اللهجــة الصاخبــة! ولكنــي أخبرتــك أني قتلــت نفــسي، فأنــا لا أشــعر بقداســة العواطــف البشريــة لأننــي إحــدى ضحاياهــا، ربمــا ســألت: ومــاذا تســتطيع هــذه الأم المنكــودة أن تفعلــه؟ فأقــول لــك إنهــا كانــت تســتطيع عمــل كل شيء. كانــت تســتطيع أن تبعدنــا عــن هــذه الهاويــة بعــد الأرض عــن الســماء. كانــت تعــرف أنــه لا يوجــد لنــا أحــد يهمــه أمرنــا في شيء. كانــت تعــرف أننــا لا نســتطيع الحيــاة مــع بيــت عمــي، وحتــى إذا أرغمنــا عــلى هــذه الحيــاة، فمعنــاه بالنســبة لنــا المــوت. المــوت لنــا في أفظــع صــوره وحالاتــه، يعنــي مــوت الحيــاة. لنفــرض أنهــا لم تســتطع تأمــين مســتقبلنا بشــكل مريــح، فهــلا اســتطاعت أن تشــتري لنــا ســما زعافــا فتــسرع بنهايتنــا وتحــول بيننــا وبــين الشــقاء؟! وهــل تكــون مجرمــة في هــذه الحالــة بينــما تبرئــين ســاحتها

وقد سممتنا هذا التسمم البطيء؟ فوالله إن قاتلا يجهز على فريسته لأرحم من قاتل يعذب فريسته بالقتل البطيء، وهل تنتظرين إلى أن أخبرك كيف أصبحت حالتنا بعد موت ذينك الوالدين؟ كلا، كلا، سوف لا أذكر لك؛ لأني أشعر أنه لا تزال في نفسي بقية من الكرامة، ويكفي ما أبثه من الله ما نلاقي، انظري هذه الطفلة الشقية في حالة النزع؛ بينها امرأة عمي في ضيافة ابنتها في حيفا. إني لا أجد من يكون إلى جانبنا في وحشة الليل البهيم. حاولت أن أسأل عمي أن يرحمنا، ولكني تصورته يقول: هذه اللاجئة لا تنتهي طلباتها، وفكرت أن أستدعي طبيبا فتخيلت الجيران يقولون: ما أحرصهن على الحياة! تريدها أن تشفى ثم ترمي بها إلى لجج ألوان والشقاء، وبحثت عمن أطلب مساعدته فلم أجد. لم أجد من يردد ندائي إلا الشقاء والدمار، فشربت كأسهما مترعة حتى الثمالة، وكنت لا أملك غير الدمع فسكبته حارًّا غزيرًا، ولما نضب دمعي، وتلف قلبي، رحت أطلب لها الثأر، وممن أثأر لها؟ ومن هذا الذي جنى عليها؟ فاتهمت نفسي الشقية بالجناية! ويعلم الله أنها مظلومة وليست ظالمة، ومع هذا لم أتردد من أخذها بثأر ما لم تجن فقتلها، ثم رجعت إلى المريضة الشقية فوجدتها في أسوأ الحالات، عندها افتكرت، ولم لا أترك أختي للموت؟ لم لا؟؟ ألست أرحم بها من أمها على كل حال؟ إن أمها تركتها هدفا مباحًا للقطيعة! وسلمتها لقمة سائغة إلى الشقاء! بينما أنا أتركها تموت لأرسلها إلى الله! فأكون قد استرحت من أختي ونفسي. استرحت راحة من نوع غريب مجهول.

ثم صارت تدور حول نفسها بزهو وخيلاء وهي تقول: لقد قتلت نفسي بشجاعة؛ قتلتها ولم أشعر لها بألم. ما أهون أن يقتل الشقي نفسه فيستريح! وعندما لم تقو اعصابي على الاحتمال فغادرت الغرفة وأنا أقول: إنك لم تقتلي نفسك يا مسكينة لتشعري بألم! لقد كانت نفسك مقتولة من زمن طويل، ولماذا تشعرين بألم؟ وهل الشاة المذبوحة تشعر بألم السلخ والتقطيع؟

ولم أكد أصل البيت وأستجمع شتات أفكاري لأكتب، حتى سمعت ضجة رجال وصبية يتراكضون في الشارع، وأطللت من النافذة لأرى، فإذا بهم يتهامسون: فتاة تدعى سنية أحمد، أمسكها الجيران وهي تحاول أن تلقي بنفسها عن السطح، وأحضروا لها الطبيب، فقرر أنها مصابة بأفظع حالات الجنون، فنقلوها إلى المارستان، بينما لا تزال شقيقتها الطفلة في البيت تحتضر.

## الصِّحَّة والجمال

مما هو مؤسف حقا أننا لا نلقي بالا إلى تنظيم حياتنا اليومية بطريقة تكفل لنا الراحة والنظام، فضلا عن الصحة والجمال، وإني أعد السيدة المسؤول الأول عن الفوضى في هذه الحالة، فلو فكرت في تنظيم شؤون الاسرة تنظيمًا دقيقًا بكل ما يختص بأوقات الطعام وألوانه وملاءمته لكل فرد من أفراد العائلة لاستراحت واستفادت.

ولعلني أستطيع مساعدتك أيتها السيدة بهذه العجالة لنحافظ على صحتنا وجمال أجسامنا.

تختلف أوقات الطعام وألوانه باختلاف السن، فالطفل له غذاء لا يوافق الشباب والشيوخ، وللكهول طعام يوافقهم ولكنه لا يوافق الشباب أيضا! ولا يجوز أن يكون طعام الناقه كطعام الصحيح المعافي، فلا يغرب عن بالك أن تلاحظي هذه العوامل المهمة! ومن المعلوم بالبداهة أن لكل فصل من فصول السنة أغذية خاصة به، ولا يفوتنا أن نذكر أن للنساء أطعمتهن كما للرجال أطعمتهم، إذ إن المرأة بطبيعة وظيفتها كأم وربة بيت يناقض عملها عمل الرجل في العمل والنضال، حتى أن طعام الرجل الذي يبقى بجانب مكتبه حتى الساعة الثانية بعد الظهر، يجب أن يختلف عن طعام العامل الذي يكد ويدأب طول النهار، فقد ثبت أن الفوضى في الطعام هي السبب المباشر أو غير المباشر في التعرض لأمراض لا تحصى ولا تعد.

وكما يجب أن نأخذ أنفسنا بشدة في مراعاة قوانين الغذاء، يجب علينا

ألّا نلجأ إلى الإفراط فيه أبدا؛ لأن الإفراط في الطعام له أضرار بالغة جدا ينهى عنها الأطباء وينسبون إليها أوخم العواقب، وقد جاء في الحديث الشريف «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع» وقال أيضا: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء» وقال الله سبحانه وتعالى: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا» فإن الإكثار من الغذاء والإقلال منه مضران على السواء.

ولا يجوز شرب الماء أثناء الأكل ولا بعده مباشرة، ويمكن أخذ جرعة واحدة بعد الأكل بربع ساعة، وبعدها لا يستحسن الشرب قبل أن يتم الهضم، وما أحسن أن يرتاح الإنسان بعد وجبات الطعام خصوصا بعد وجبة الغذاء فلا يحسن أن يباشر أي عمل عقلي أو جسماني قبل مضي ساعة بعدها.

ومما هو شائع بين بعض السيدات عندنا أن يلجأن إلى طرق كثيرا ما تكون ضارة لمقاومة السمنة، والحقيقة أن السمنة من آفات جمال القوام، عدا عن أنها تثقل الحركة وتجهد صاحبها وتضايقه.

وسبب السمنة عادة الاستعداد الشخصي والحياة الساكنة وعدم القيام بالتمارين الرياضية الضرورية، فيتكون الدهن تحت الجلد طبقات، فيضخم القلب والكبد والكلى والمعدة والرئتان، ويتعب الجسم. ويلاحظ ذلك عند القيام بأي حركة ولو بسيطة، فإذا زادت كمية الدهن في الجسم وخاصة في القلب كان ذلك خطرا على حياة السمين، وربما نشأ عن ذلك الموت الفجائي.

والمصابون بالسمنة معرضون أكثر من غيرهم لبعض الأمراض الشديدة كالسكر والزلال، وأحسن الطرق لعلاجها تقليل مقادير الغذاء، واختيار الأغذية القليلة الدهن وتجنب المواد النشوية كالبطاطس والأرز، والإكثار من الخضروات والفاكهة ولا سيما الطازجة، والإقلال من شرب الماء، والنوم والنهوض باكرًا في الصباح، والإكثار من الحمامات الساخنة والألعاب الرياضية والمشي لمسافات بعيدة.

وهناك طرق أخرى مفيدة كالعلاج الكهربائي والاستشفاء بالمياه المعدنية والتدليك، وهناك أدوية يمكن استعمالها ولكن بعد استشارة الطبيب.

وكما أن السمنة مضرة كذلك النحافة مضرة، وتكون النحافة مادة ورائية أو ناتجة عن الحزن العميق، أو إجهاد الجسم في أعمال شاقة متواصلة، أو قلة الأغذية مع رداءتها أو المرض؛ ولعلاج النحافة يجب أن يعالج السبب لها، كاجتناب الحزن، والاعتدال في العمل، وتناول الأغذية الدهنية والنشوية كالزبدة والقشدة والجبن والسمك، والبطاطس والأرز وشرب الماء بكثرة مع تجنب التوابل، والتزام الراحة والهدوء والإكثار من التسلية. وهناك نصائح ذهبية مارستها ملكات الجمال في العالم فاحتفظن برشاقة أجسامهن ونلن شرف الملوكية بدون تاج وهي:

١. لا تأكلي حتى تشعري بالجوع الشديد.

٢. اختاري من الطعام ما تدعوك الشهية لأكله.

٣. تجنبـي كل مـا يدعـو إلى الكـدر أثنـاء الطعـام لئـلا يصرفـك ذلـك عـن التمتـع بطيباتـه.

٤. أكثري من شرب اللبن الرائـب والحليب، وأكل الخضر والأثمار والفواكه.

٥. اشربي قـدح مـاء بارد عند قيامك من النوم.

٦. كـوني بشوشـة مبتسـمة مهـما كانـت الأحـوال، ولا تعبـسي أبـدا؛ لأن ذلـك يسـاعد عـلى تـسرب الغضـون عـلى صفحـات وجهـك.

٧. ليكــن نومــك في الســاعة العــاشرة مســاء عــلى الأكــثر ونهوضــك في الخامســة صباحًــا صيفًــا، والسَّادســة شــتاءً لتســتفيدي مــن هــواء الصبــاح العليــل المنعــش.

٨. اغتسـلي بالمـاء البـارد؛ لأن ذلـك ينبـه الأوعيـة الدمويـة فتكسـبين لونـا زاهيـا جميـلا يغنيـك عـن الطـلاء ويمنـع تجعـد الوجـه ويلطـف الحـرارة.

٩. لتكــن غرفــة نومــك متســعة نظيفــة يدخلهــا النــور ويتخللهــا الهــواء، وإيــاك أن تدخــلي إليهــا الزهــور والــورود.

١٠. عليــك بالتماريــن الرياضيــة بأنواعهــا، وخصوصــا المــشي لمســافات طويلـة كل يـوم في الصبـاح والمسـاء، كـما أن هنالـك لعبـة مفيـدة للجسـم وتحريـك عضلاتـه؛ هـي لعبـة الحبـل، المشـهورة بـين الأطفـال فـلا تأنفـي مـن ممارسـتها كلـما اسـتطعت.

وباتباعـك هـذه التـواصي والنصائـح يمكنـك أن تحصـلي عـلى جسـم رشـيق سـليم وعقـل سـليم أيضـا. فالعقـل السـليم في الجسـم السـليم.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي